محمد سليم العوّا

في ظلال السيرة

الحديبية

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب:
في ظلال السيرة
الحديبية
الطبعة: الأولى .
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
اسم المؤلف: محمد سليم العوا
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية
عابدين - القاهرة.
١٥٢ صفحة ١٤ × ٢٠ سم
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٩٧٦٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-225-223-6

إهداء

إلى هند..

أم محمد ويمنى

محمد [illegible]



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(الفتح: ٢٨)



فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحديبية كلمة تدل على معلمٍ من معالم السيرة النبوية ، معلمٍ يتضمن عددًا من أدلة صدق نبوة محمد ﷺ .

ففي الحديبية سفر وإقامة ؛ وحرب وسلم ؛ وفيها تربية وتعليم ؛

وفيها تأكيد لمكانة المرأة في الأمة والأسرة ، يخالف ما عليه المتزمتون ـ في شأن المرأة ـ من زعمهم اتباع رسول الله ﷺ ؛

وفيها تشريع عبادة وأداؤها ؛ وفيها تعليمٌ سياسيٌّ من النبي ﷺ لأمته ؛

وفيها مواقف للمنافقين يفضحها الوحي فيبينها الرسول لأصحابه ؛ وفيها قرآنٌ ينزل في أثنائها ، وبعدها ، يتحدث عما سبقها وعما سيلحقها ، ويبشر المؤمنين بالنصر ، والفتح بعد الفتح .

لذلك كان العيش مع الحديبية نموذجًا للعيش في ظلال السيرة كلها ، الذي هو كالعيش مع رسول الله ﷺ في غدوه ورواحه ، وسائر أحواله.

والسيرة على وجه الإجمال محفورة في ذاكرة الأمة المسلمة ، لكنها تقتضي - في كل جيل - تطوافًا تفصيليًّا بأهم معالمها يوقف المتابع للشأن النبوي - بل للشأن الإسلامي - على بعض دقائق الأمور ومهماتها. وينبه المؤمنين إلى كيفيات من التعامل الراقي مع الأشخاص والأحداث قلَّ من يهتم من الناس بإحيائها والدعوة إليها.

وفي هذا العود إلى بعض تفاصيل السيرة ، من وقت إلى آخر ، تذكير ضروري بما اعترى طريق الدعوة الإسلامية في العهد النبوي من عقبات ، وبما أنعم الله به على رسوله والمؤمنين من انتصارات ، يطمئنُّ به قلب المؤمن في المحنة والمنحة ، والاختبار والنعمة ، والعسر واليسر ، والرخاء والشدة .

ولو لم يكن للقراءة التفصيلية للسيرة النبوية غير هذه الفائدة لكانت كافية في بعث الهمة إلى تجديد النظر في وقائع السيرة، وتجديد الكتابة عنها، في كل عصر من عصور الإسلام.

فكيف والكتابة في السيرة ، والإحاطة بها ، من أهم السبل التي تعين المسلم على التأسي برسول الله ﷺ امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١)؛ وتجعله يعقل فضل طاعة رسول الله ﷺ المأمور بها في مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ (التغابن: ١٢) وقوله تعالى على لسان نبيه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣١) .

وفي الحديبية من ذلك كله كثير سيجده القارئ في ثنايا فصول هذا الكتاب .

* * *

ويكفي القارئ أن يقف على أن رب العزة ـ تبارك اسمه ـ خاطب نبيه ﷺ بالوحي في الحديبية ، أو بسببها ، ثلاث مرات .

كانت أُولاها هي نزول قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ

فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (البقرة: ١٩٦) .

وكانت ثانيتها عندما نزل قول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ (النساء: ١٠٢)

وهو ما سيأتي بيانه في فصل (التيسير على الناس) ؛

وكانت ثالثتها نزول سورة كاملة ، هي سورة الفتح المكونة من تسع وعشرين آية ، كلها في شأن الحديبية. وسيجد القارئ حديثًا عن هذه النصوص القرآنية ، موجزًا ، في فصل (حديث الوحي) ؛ وإنما أردت بالتنبيه عليها هنا إبراز

حقيقة بالغة الأهمية هي أن أمر الحديبية كان وحيًا من أوله إلى آخره.[1] لئلا يغتر أحدٌ بقول قائل من الحكام ، أو من الذين يُسوِّغون لهم أعمالهم بالحق وبالباطل ، إنه يجتهد ، في شأنٍ ما ، كما اجتهد رسول الله ﷺ في شأن الحديبية .

وبعض الذين يهرفون بما لا يعرفون يقولون إن الدولة الإسلامية العصرية ، وهي في حالها التي هي فيه ، من الضعف الداخلي والهوان الخارجي ، يجوز لها أن تقبل الدَنِيّة وتتنازل عن بعض حقوق شعوبها. وهذا كلام غير صحيح وغير جائز. وليس أشد منه بطلانًا إلا كلام بعض المنسوبين إلى الفقه عن جواز إبرام معاهدات الصلح في حالات الضعف العسكري والسياسي قياسًا - فيما زعموا - على صنيع النبي ﷺ في الحديبية .

أقول : إن هذه المزاعم كلها فاسدة ، لأن أمر الحديبية كان وحيًا كله كما أسلفت ؛ ولأن المسلمين لم يكن بهم ضعف ولا هوان بل كانوا في حال قوة وعزة ، حتى إنهم أسروا من المشركين مائة وسبعة وسبعين رجلا ، كما سيراه

(١) محمد سليم العوَّا ، في النظام السياسي للدولة الإسلامية ، ط٨ ، دار الشروق ٢٠٠٦ ص ١٨٨.

القارئ في موضعه من هذا الكتاب . بل إن رسول الله ﷺ هو الذي قال لبديل بن ورقاء « إن شاءت قريش ماددتهم مدة يأمنون فيها » ، وهذا قول من المعصوم ﷺ يدل على أن الضعف والخوف من الحرب كان من شأن قريش لا من شأن المسلمين .

* * *

إن صلتي بالحديبية قديمة قدم صلتي بالسيرة النبوية المشرفة ، وعندما كنا نقرأ السيرة في بيتنا كانت الحديبية ، وما جرى فيها ، مثار تساؤلات عديدة لمن شاركونا هذه القراءة ، وللأبناء والبنات ، ولم يتسع وقت تلك القراءة للرد على كثيرٍ من تلك التساؤلات .

وقد تجددت هذه الصلة بالحديبية وما جرى فيها منذ خمس سنوات (١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢) عندما طلبت مني صحيفة الخليج الإماراتية أن أكتب لها عددًا من المقالات بمناسبة شهر رمضان المبارك فكتبت بعض فصول هذا الكتاب موجزة ، بما يناسب الكتابة الصحفية ، ونُشرت يومًا بعد يوم من أيام شهر رمضان المبارك لعام ١٤٢٣ هـ .

ثم دعيت إلى الحديث عن الحديبية في عدة أماكن منها نادي قضاة مصر (٢٧ من رمضان ١٤٢٣ هـ = ١/١٢/٢٠٠٢م) وتشرفت في تلك الليلة بأن شاركت في هذا الحديث أستاذيَّ الجليلين المستشار عثمان حسين عبد الله والمستشار طارق البشري ؛ ثم تناولت الحديبية من زوايا أخرى في حديث مفصل في محاضراتي الأسبوعية التي ألقيها في جمعية مصر للثقافة والحوار بالقاهرة .

وكان الحاضرون في كل مرة يضيفون إليّ أكثر مما أضيف إليهم. فالأسئلة ، والاستفسارات ، والاعتراضات ، ووجوه الانتقاد كلها أدت إلى مزيد بحثٍ وتحقيق جعل النص الذي يقرأه القارئ هنا على الصورة التي هو عليها ، وأنا مدين بأكبر الفضل فيها إلى الذين قرأوا النص الأول ، أو سمعوا ما قلته : فسألوا ، أو استفسروا ، أو اعترضوا ، او انتقدوا .

وكان الملف الذي أودعته أصول مقالات صحيفة « الخليج » ، وأصول المحاضرات التي ألقيتها عن الحديبية في عدة مناسبات ، قد فقد مني. وَضَعْتُه في غير مكانه فأصبح شبه مستحيلٍ أن أعثر عليه في أكوام الأوراق والملفات والمؤجلات من البحوث والدراسات !! لكن الله ـ وله الفضل ـ

يسَّر للزميلة العزيزة الأستاذة سهير الخياط المحامية بالنقض ، ومديرة مكتبي للمحاماة ، أن تجده في غير مظنة وجوده ، فاستَفدت منه ووجدت فيه بعض ما سُئِلت عنه ، أو اعترض به على ما قلت فزدت ما يتصل بذلك من فصول الكتاب بيانًا. فللأستاذة سهير الخياط في ذلك الفضل ، ومني لها صادق الشكر.

ومن شُكْرِ الناسِ ، الواجب شرعًا ، أن أذكر جهد مساعدتي ـ بل ابنتي التي لم ألدها ـ أمل العشماوي التي أرهقتني بإلحاح متواصل ـ لا يَكل ولا يَمل ـ لأنتهي من هذه الفصول ، حتى أصبحت معذب النفس لكثرة ما كانت تبدئ القول في الأمر وتعيده ! ولم أجد مخرجًا مما ركّبتني إياه من هم إلا بالتفرغ لإنجاز ما كان غير تام من فصول هذا الكتاب. فجزاها الله خيرًا عن أحسنِ صنيعها ، وغفر لها أسوأه !!

وقد قرأت المسوّدة الأخيرة لهذه الدراسة ابنتي المهندسة مريم ، واقترحت عدة اقتراحات نافعة أخذت بها ، وهي يدٌ لها عندي أذكرها وأشكرها .

* * *

وإذا جعل الله في العمر بقية ، وفي العزم مضاءً ، فإنني آمل أن أوفق إلى كتابة ما يتيسر لي من أحداث السيرة

ومواقفها بالطريقة التي يجد بها القارئ بين يديه هذه الفصول من قصة الحديبية .

وما كان في هذا الكتاب - وغيره مما كتبت وقلت - من صواب فهو من الله تبارك وتعالى ، له وحده فيه الفضل والمنة ؛ وما كان من خطأ ، عن سهو أو غفلة ، فهو مني لا يسأل عنه سواي .

والله أسأل أن يغفر لي زلاتي وأخطائي ، ويرحم سري وعلانيتي ؛ وأن ينفع بهذه الفصول كاتبها وقارءها، وأن يسلكنا بها في زمرة الذين يحبون رسوله ويتبعونه ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،

القاهرة في: ٢٢ من ربيع الأول ١٤٢٨هـ

١٠/٤/٢٠٠٧م

محمد سليم العوَّا

في ظلال السيرة

ستظل السيرة النبوية - دائمًا - مصدرًا غنيًّا للمعرفة الإسلامية ، يستجلي فيه الباحثون مسيرة الإسلام في عهد النبوة ، ويتعرفون على معالم شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ويقفون على سلوك أصحابه ، ﷺ ، في التعلُّم منه ، وطاعته، والثقة بما يقول ويفعل، وفي مناقشتهم إياه ومراجعتهم له ، إذا رأوا فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه محلاً للمراجعة أو المناقشة . ويرون كيف يكون استمساك النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ، بما أُوحي إليه ، فلا يتقدم عنه ولا يتأخر ، ولا يأبه لقول أحد - كائنًا من كان - وإنما يدلُّ أصحابه ، برفق يليق به ، على أن الأمر مرجعه إلى الله وحده . وكيف كان يقبل النصيحة والمشورة من أصحابه عندما يكون الأمر رأيًا رآه هو ، أو رآه بعض أصحابه وقبله الرسول منه ، فإذا اقترح عليه - عندئذ - أن ثمة ما هو أرفق بالناس ، أو أدنى لتحقيق مصلحة المسلمين العامة فإنه يعدل عن الرأي الذي رآه ، أو قَبِلَهُ أولا ، ويأمرُ بخلافه ، لا يصده عن ذلك ما يصد بعض الناس - في عصرنا - ومنهم حكام كبار ، وذوو جاه وسلطان ، عن الحق والرجوع إليه خشية أن يقول الناس

إن أحدهم نزل على رأي أصحابه أو رجع عن قوله إلى قول هو أحسن منه أثرًا وأعدل نتيجة !

* * *

والذي يستعيد السيرة ، ويحيا في صحبة أحداثها ، يرى كيف تنزَّل القرآن مرتبطًا بالحياة الإسلامية الأولى ، وكيف كان تشريعه رفقًا بالناس ورفعًا للإصر والحرج عنهم ، وكيف كان الوحي يبشر المؤمنين فلا يقنطوا ، ويعدهم فيصدِّقوا ، ويفضح المنافقين فينكشف أمرهم، ويثبت فؤاد رسول الله ومن معه فلا تذهب بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، المخاوف ولا تتلاعب به الأهواء ، ولا يعرف الشيطان إلى قلوبهم سبيلاً: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً ﴾ (الفرقان:٣٢) . والتثبيت هنا له ولمن تبعه من المؤمنين عند نزول الوحي ، ولمن آمن به واتبعه إلى يوم القيامة ، فإنك تقرأ الآية من التنزيل فتجد في نفسك لها من الأثر ما يخيل إليك معه أنها الآن أنزلت ، وفي شأنك الذي تعانيه نطقت ، ويردك لفظها إلى الله ردًا جميلاً . وقد صدق عمر بن الخطاب ﷺ عندما قال ، حين تلا أبو بكر ﷺ ، قول الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى

ﭐللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٤) وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر:٣٠) قال عمر - وقد كان أنكر أن يقال إن رسول الله قد مات - « فوالله كأنها ما أنزلت إلا الساعة »! وليس فيمن يعيشون مع القرآن ، ويرجعون إليه كلما حزبهم أمر ، من لم يصادف مثل هذه الحال العُمَرِية ! [١]

* * *

والكتب المصنفة في السيرة النبوية لا تكاد تدخل تحت حصر [٢] والمكتبة الإسلامية ، بل المكتبة البشرية في اللغات كافة ، تستقبل كل يوم جديدًا من المكتوب عن السيرة من جوانبها كافة ، فإن الكتَّاب والقرَّاء - أيضًا - كلٌ ميسرٌ لما خُلِقَ له !

وقد عشت السيرة النبوية قارئًا ومتأملاً مرات كثيرة ، فقرأت في صغري على أبي رحمه الله كتاب « سيرة ابن

---

(١) صحيح مسلم الحديث ٤٤٥٢و٤٤٥٣ ؛ وسبل الهدى والرشاد ، جـ ١٣ ، القاهرة ٢٠٠٦ ص ٤٨٦ .

(٢) انظر معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ ، لصلاح الدين المنجِّد ، ط دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٢، لترى مبلغ الكثرة التي وقف عليها من المؤلفات، وهي كلها غيض من فيض وقطرة من بحر .

هشام» مع شرحه «الروض الأُنُف في شرح حديث السيرة النبوية لابن هشام» وهو من تأليف عبد الرحمن السهيلي ، ولا تزال في مكتبتي طبعته العتيقة التي قرأته منها ، أعود إليها أحيانًا فأجد ريح أيام الطفولة بحلاوتها وبراءتها والظمأ الذي لا يُروى إلى المعرفة .

ثم عشت مرارًا مع السيرة النبوية ، بطرق مختلفة ، في دروس شيوخي : العلامة الشيخ محمد الصادق عرجون شيخ علماء الإسكندرية ، والعالم الجليل الأستاذ المربي الشيخ منصور النمر ، والداعية الثابت الصابر الشجاع ، أحد أذكياء الدنيا ، الواعظ المدقق الشيخ إسماعيل حمدي ، والمعلِّم القدوة ، والداعية المعذَّب المحتسب ، الأستاذ موسى ابن عمران ، والعلامة الشيخ عبد الفتاح عفيفي ، والعالم السلفي الجليل ، التاجر الصدوق ، الشيخ محمد متولي عركز من جماعة أنصار السنة المحمدية بالإسكندرية، رحمهم الله جميعًا.

كان لكل منهم طريقته في التعبير عن حبه لرسول الله ﷺ ، واختياراته من روايات السيرة ، ومواطن اهتمام يركز عليها وموضوعات أو أحداث لا يحفل بها. وعن كلِّهم أخذت ،

ومنهم جميعاً تعلمت ، فجزاهم الله عني ، وعن سائر من انتفع بعلمهم وعملهم ، خير ما جزى عالمًا عن علمه وعمله .

وقرأت بعد ذلك وحدي ما استطاعت يدي أن تصل إليه من كتب السيرة : مصادرها الأصلية القديمة ، وكتابات المحدثين والمعاصرين من الهواة ومن المتخصصين جميعًا. وقرأت أهم ما كتبه بالإنجليزية غير المسلمين من المستشرقين ومن المؤرخين ، المنصفين الموضوعيين والمتحاملين الشانئين على السواء .

ثم اقتضاني الحرص على أن تتصل الأسباب بين أولادي وبين سيرة الرسول ﷺ أن أقرأ لهم السيرة مرتين : أولاهما كانت في أثناء إقامتنا في الرياض ، عاصمة المملكة العربية السعودية ، وكانت القراءة لابنتيَّ الكبريين فاطمة وسلوى ، ومعهما ابنة أخي العزيز الأستاذ محمد الفاتح مدني آمال وابنه حسن ، وهما من جيل ابنتيَّ الكبريين ، وأمهما هي الابنة الثانية لأستاذي ومعلمي المستشار حسن العشماوي رحمه الله [1].

---

(١) تزوجت بعد وفاة أم أولادي ، الدكتورة أسمهان بكير ، ابنته الكبرى أماني، وكان أبو أولادها الأخ العزيز الدكتور كمال حلمي قد توفي من قبل ، رحمهما الله .

وكنت في هذه القراءة أعتمد ـ مع الروض الأنف ـ على السيرة كما رواها ابن سعد في أول الطبقات الكبرى ، وكما رواها ابن حزم في مختصر السيرة ، وكما كتبها شيخنا العلامة محمد الغزالي في فقه السيرة ، الذي خرَّج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمهما الله ـ وعلى السيرة كما كتبها العلامة الأستاذ أبو الحسن الندوي ، وكما كتبها الشيخ محمد أبو زهرة وكنت أقرأ قراءة ناقدة ما كتبه الأستاذ محمد عزة دروزة عن السيرة النبوية مستخرجة من القرآن الكريم (!)

وكنت أعدُّ لكل يوم خميس ـ وهو اليوم الذي كنا نقرأ فيه ـ أوراقًا وملخصات وتعليقات أحاول بها أن أقرب المعاني إلى هذا الجمع من الصغار الأذكياء ، وأن أدخل بحقائق الحياة النبوية إلى قلوبهم وعقولهم معًا .

وأجمل ما أجد ذكريات تلك القراءة عندما يسألني أحد أولئك الأربعة عن أمرٍ ويقول لي : «لقد قلته لنا ، أو علقت عليه وأنت تقرأ لنا السيرة في الرياض»! لقد مضى على هذه القراءة ربع قرن أو يزيد ، وهي مع ذلك مؤثرة في أولئك الذين كانوا أطفالاً وأصبحوا اليوم آباء وأمهات. فلله الحمد والمنة !

والشيء الذي آسف له أن أوراقي وملخصاتي وتعليقاتي قد فقدت ، في تنَقُّلي بين البلاد ، فلم يبق عندي منها شيء. وقد أنفق الساعات الطوال - الآن - في تحقيق رواية سبق أن حققتها أو في محاولة العثور على قول نقلته بيدي من مصدره ورويته لأولئك الصغار . ويعزيني عندئذ أنني أعاني مما عاني منه كل من كتب عليه التنقل في بلاد الله وكتب له حب التعلُّم والحرص عليه !

* * *

القراءة الثانية كانت بين سنتي ١٤١٩ و١٤٢٠ الهجريتين — ١٩٩٨ و٢٠٠٠ الميلاديتين بدأت في شهر رجب ١٤١٩ — نوفمبر ١٩٩٨ وانتهت في شهر ذي القعدة ١٤٢٠ - فبراير ٢٠٠٠.

كانت في بيتنا في القاهرة ، وكان سببها أن الجيل الثاني من أولادي - أحمد ومريم وعبد الرحمن - لم يكونوا استمعوا إلى السيرة النبوية كاملة ، كما استمعت الابنتان الكبريان فاطمة وسلوى. وأن زوجتي أماني العشماوي وقفت في مكتبتي على نسخة من كتاب المقريزي « إمتاع الأسماع بما لرسول الله من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » الذي حقق السِّفر الأول منه أستاذنا العلامة محمود شاكر ، رحمه

الله تعالى [1] ، ففرِحَتْ به فرحًا عظيمًا ورأت أنه خير ما نقرأ منه السيرة النبوية للأبناء والبنات . واتسع حضور هذه القراءة فكان يشاركنا فيها عدد من أصدقاء الأبناء وصديقات البنات منهم - مع حفظ ألقابهم التي اكتسبوها من بعد وألقابهن - سالي توفيق ومرْوة السيد والسيدة زهراء البدراوي والدكتور حسنين البرهمتوشي وأحمد البدراوي والشقيقان محمد وياسر عبد البديع والشقيقان محمد وأحمد عبد المنجي وأكرم الجلا وباسم حمدي وآمال مدني والسيدة فاتن القرماني وابنتاها نجوى وأمل العشماوي ومروة سلطان وحسن كمال ورباب سري ورشا هاني .

حضر بعضهم بعض مجالس قراءتنا ، وحضر بعضهم أكثرها ، وحضرها بعض منهم كاملة .

---

(١) صدرت له طبعة كاملة في ١٤ جزءًا عن دار الكتب العلمية بتحقيق محمد عبد الحميد النميسي، بيروت ١٩٩٩. وفي عنوانه اختلاف بين الطبعتين، بل في كل منهما. ففي طبعة شاكر، على الغلاف: (الأنباء والأموال) وفي صفحة (د) من مقدمة الشيخ عبد الله الأنصاري رحمه الله (الأقوال) بدل (الأموال). وفي طبعة بيروت جاء العنوان بلفظ (... بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع) وفي صفحة (٤) من مقدمة الدكتور محمد جميل غازي ذكر ألفاظ (الأبناء والأحوال...) ولم يذكر (الأموال) وقال العلامة الزركلي (الأعلام: ١٧٧/١). (... الأبناء..) والله أعلم بحقيقة الاسم الذي سماه به صاحبه!

وكثيراً ما شاركنا مجلسنا أخونا العلامة اللغوي المحقق، الطبيب ، الفقيه ، الكاتب ، الخطيب الأستاذ الدكتور محمد هيثم الخياط نائب المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية - ثم كبير المستشارين فيها بعد تقاعده - وعضو المجامع اللغوية في سورية ومصر والأردن وغيرها وعضو مجلس أمناء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، فكان - إذا حضر - جعلت القراءة له واستمعت مع المستمعين ، أو إن شئت الدقة ، استمتعت مع المستمتعين .

وقد كنت أستعين في تحضير هذه القراءة بكتاب « سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد » لمحمد بن يوسف الصالحي وبكتاب تهذيب السيرة النبوية لابن هشام الذي صنعه العلامة الأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله، وبصحيحي البخاري ومسلم، وبكتاب « الشفا في أحوال المصطفى » للقاضي عياض ، وبكتاب « صفحات من سيرة المصطفى » لأستاذي الجليل المستشار عثمان حسين حفظه الله تعالى ، وبكتاب زاد المعاد للعلامة ابن قيم الجوزية في طبعته التي حققها الشيخان شعيب وعبد القادر الأرنؤوط وصنع فهارسها الأستاذ محمد أديب الجادر .

* * *

والقراءة المتأملة للسيرة النبوية توقفك كلما كررتها على جديد من المعاني لم يخطر لك على بال في قراءة سابقة. وأنا لذلك أدعو الذين يحبون القراءة ، ويصبرون عليها ، أن يجعلوا نصيبًا من قراءتهم لمعاودة النظر في السيرة النبوية حينًا بعد حين. وأنا زعيم لهم أن يجدوا في ذلك من المتعة وتجدد المعرفة مالا يجدونه في قراءة سواها من تواريخ الأمم وتراجم العظماء .

* * *

وهذه الفصول التي أقدمها للقارئ عن « الحديبية » هي ثمرة تلك القراءات العديدة ، والمعايشة المتكررة ، ثم هي ثمرة الكتابة لصحيفة « الخليج » الإماراتية في رمضان ١٤٢٣هـ - نوفمبر/ ديسمبر ٢٠٠٢م . وقد نشر منها في « الخليج » أربعة عشر فصلاً أولها « شوق ورؤيا صادقة » وآخرها « أعظم فتح ». ولم ينشر - لسبب لا أعلمه ! - الفصل الذي عنوانه: « مشورة امرأة أنقذت الصحابة ». وكتبت الفصول الأخرى : « اختفاء الشجرة » و« معاهدة شارعة » و« حديث الوحي » لتنشر في هذا الكتاب قاصدًا أن تكتمل بها قصة الحديبية فصولاً وعبرًا .

* * *

(١)

شـــوق ورؤيا صادقة

كان المسلمون ، لاسيما المهاجرون منهم ، يكابدون شوقاً حقيقياً لزيارة مكة ورؤية البيت الحرام والطواف به ، بعد أن حرموا منه نتيجة العداوة التي أظهرتها قريش للإسلام وأهله ، والحرب التي قامت بين الفريقين وما تبعها من ثارات في نفوس قريش وأهل مكة لمن قتل من صناديدهم[1] في المعارك مع المسلمين .

وكان المهاجرون ـ قبل ذلك ـ قد استوحشوا جوَّ المدينة المنورة واستوخموه ، بعد أن أصيب عدد منهم بالحمى ، كان من بينهم أبو بكر وبلال رضي الله عنهما ، فكان النبي ﷺ يحببهم في الصبر وتحمل مشقة الإقامة في المهجر الجديد حتى قال لهم : « لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من

---

(١) جمع صِنديد، وهو السيد الشجاع، والصناديد بفتح الصاد الدواهي. وصناديد قريش: أشرافهم وعظماؤهم ورؤساؤهم، الواحد صِنديد قال ابن الأثير في النهاية وكل عظيم غالبٍ صِنديد جـ ٢، طبعة دار المعرفة، بيروت ٢٠٠١، ص٥٤.

أمتي إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيدا»[١]، وقال لهم ﷺ «ولا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه»[٢].

وكانت عائشة قد أخبرت النبي ﷺ أنها دخلت على أبي بكر وبلال فسألتهما عن حالهما فقال لها أبو بكر :

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله!

وقال لها بلال :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ... بواد ، وحولي إذخر وجليل؟

وهل أردنْ يوم مياه مَجَنَّة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل[٣]؟

فقال النبي ﷺ : «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها وبارك لنا في صاعها ومُدِّها وانقل حمّاها واجعلها بالجحفة»[٤]. (الجحفة موضع بين مكة والمدينة غير مسكون).

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة الحديث رقم ١٣٧٨، طبعة بيت الأفكار الدولية، عمان ١٩٩٨ .

(٢) رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص الحديث رقم ١٣٦٣.

(٣) شراكُ النَّعل : سيره الذي يثبَّتُ به على ظهر القدم ؛ ومَجَنَّة : موضع بأسفل مكة على بعد أميال منها كان يقام بها سوق للعرب في الجاهلية، وميمها تكسر وتفتح والفتح أكثر. وشامة وطفيل قيل هما جبلان بنواحي مكة، وقيل عينا ماء بها.

(٤) متفق عليه من حديث السيدة عائشة ﵂ وهو في البخاري برقم ١٨٨٩ و٣٩٢٦ طبعة دار السلام بالرياض ١٩٩٧، وفي مسلم برقم ١٣٧٦.

وفي الأحاديث الصحيحة عدد من الروايات التي دعا فيها رسول الله ﷺ للمدينة بالبركة ، منها أنه ﷺ كان يقول : « اللهم إن إبراهيم عبدك ونبيك وخليلك ، وإني عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة ، بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه »[1].

كان ذلك كله تطييباً لقلوب الصحابة بالإقامة في المدينة والاستقرار في مهجرهم الجديد حتى تقوى قدم الإسلام ويشتد عوده ، ويستقر كيانه الناشئ في المدينة المنورة .

ومن المدينة انطلقت قوة الإسلام تواجه قوى الشرك والطغيان ، مواجهات متكررة ، لم تحسم الموقف العسكري لصالح المسلمين ، ولكنها أرهقت قريشاً وألحقت بها خسائر فادحة وأفقدتها عدداً من سادتها وكبرائها .

وهذه المواجهات ، في الوقت نفسه ، لم تنجح في رد المسلمين عن دينهم ، ولا تفريقهم من حول النبي ﷺ ، أو إخافة الراغبين في الدين الجديد من اتِّباعه أو الهجرة إلى رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ الحديث رقم ١٣٧٣.

في ظل هذه الظروف القاسية أُريَ رسول الله ﷺ - ورؤيا الأنبياء حق - أنه يدخل مكة المكرمة ، ويعطى مفتاح الكعبة ، ويطوِّفُ بالبيت العتيق ، ويقف بعرفة مع الواقفين ، فاستبشر النبي ﷺ بهذه الرؤيا خيراً كثيراً وبشر به أصحابه وقال لهم إنه أُريَ أنه دخل معهم «مكة آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت ، وأخذ مفتاحه وعرَّف مع المعرفين»[1] (عرَّف أي وقف بعرفة). ففرح الصحابة رضوان الله عليهم بهذه البشارة ، وتهيأت نفوسهم لزيارة مكة المكرمة ، والطواف بالبيت الحرام. وأرسل رسول الله ﷺ إلى من حول المدينة من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه إلى العمرة ، لأنه كان يريد أن يستكثر من الناس لخشيته من قريش وسوء العلاقة معهم أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن المسجد الحرام .

ولكن الأعراب لم يلبوا دعوة النبي ﷺ ، حتى إنه لما مرَّ ببعض الأعراب في طريقه إلى مكة واستنفرهم للخروج معه إلى العمرة تشاغلوا بأموالهم وأهليهم ، وقالوا فيما بينهم : «يريد محمد أن يغزو بنا إلى قوم معدين في الكراع والسلاح (الكراع كناية عن الخيل المجموعة) ، والله

---

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٩٩٢، جـ ٥ ص ٥٥.

لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً ، قوم لا سلاح معهم ولا عدد»[1]. وقد فضح الله تبارك وتعالى هذا الاعتذار الكاذب بقوله : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (الفتح: ١١-١٢)

* * *

(١) السابق ، ص ٥٧.

(٢)

الطريق الصعب

عـزم رسـول الله ﷺ علـى الخـروج إلى العمـرة بعـد أن أخبر أصحابه برؤياه ، واستكثر من الخارجين معه ، فدعا إلى الخروج معه من حوله من أهل البوادي والأعراب ، ومن قـدم عليه في تلك الأيام مسلماً ، فقد أتاه بُسْرُ بن سفيان بن عمـرو الخزاعي في أواخر شـهر شـوال مـن السـنة السادسـة للـهجرة مسلماً ، فقال له رسول الله ﷺ :« يا بُسْر لا تبرح حتى تخـرج معنا ، فإنا إن شاء الله معتمرون »[١].

وخرج الرسول ﷺ من المدينة بأصحابه وهم نحو ألف وخمسـمائة ومعـه مـن أزواجـه أم سـلمة رضي الله عنها ومـن النسـاء الصحابيات أم عمارة ، وأم منيع أسماء بنت عمرو الأنصارية ، وأم عامر الأشهلية ؛ ولم يكـن أحـد ممـن مـع رسـول الله ﷺ يشك في إتمام العمرة ودخول مكة للرؤيـا النبويـة ، ولكـنهم فاتهم أن الرؤيا لم يكن فيها تحديد عـام بعينـه لـدخول مكـة

(١) الصالحي، السابق ، ص ٥٥.

ولا للوقوف بعرفة ولا لأخذ النبي ﷺ مفتاح الكعبة . وكل ذلك لم يكن في هذه المرحلة !

ولما بلغ الركب ذا الحليفة ـ وهو ميقات أهل المدينة ـ أحرم النبي ﷺ وغالب أصحابه ، وأم المؤمنين أم سلمة بالعمرة ؛ ليعلم الناس أنه لا يريد إلا البيت الحرام وتعظيمه ، ولم يقصد حرب قريش ولا غزو مكة المكرمة .

وفي الطريق إلى مكة بلغ رسول الله ﷺ أن قريشاً قد عزمت على منعه من دخول الحرم ، ومن أداء العمرة ، ومن الطواف بالبيت العتيق ، وأنهم قدَّموا خالد بن الوليد في مائتي فارس ، واستعانوا بمن أطاعهم من القبائل ومنهم نفر من ثقيف على رأسهم عروة بن مسعود الثقفي ، فخرجوا إلى موضع خارج مكة يسمّى «بَلْدَحْ» وضربوا بها خيامهم ، لصد رسول الله ﷺ عن دخول مكة ولو بالحرب .

وكان النبي ﷺ قد بعث رجلاً ليعرف له خبر قريش ومن معها من العرب فعاد إليه بالقرب من عُسْفان (قرية كبيرة بين مكة والمدينة) فقال له يا رسول الله إنهم عاهدوا الله ألا تدخلها عليهم أبداً وقد جعلوا على خيلهم خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ : «يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خَلَّوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني

كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله تعالى عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهره الله ـ تعالى ـ أو تنفرد هذه السالفة »[1] [يعني يموت ﷺ دون الحق الذي بعثه الله به] .

ثم قام ﷺ ، فشاور أصحابه في أمر قريش وما أعدته لمنعهم من دخول مكة فقال له أبو بكر رضي الله عنه : « يا رسول الله إنما جئنا معتمرين ، ولم نجئ لقتال أحد ، ونرى أن نمضي لوجهنا ، فمن صدنا عن البيت قاتلناه » ، ووافقه على ذلك أُسَيْدُ ابن حضير ـ من رؤوس الأنصار ـ فقال رسول الله ﷺ « فسيروا على اسم الله » وهي مشورة وافقت قول النبي ﷺ لعمر عندما نصحه قبل الخروج بأخذ ما يلزمه من السلاح

---

(١) رواه أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم الحديث رقم ١٩١١٧، ط بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤؛ ورواه البخاري بلفظ مختلف عن المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم، وقال: «يُصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه»، الحديث رقم ٢٧٣١ و٢٧٣٢. وقال الحافظ ابن حجر إن هذه الرواية مرسلة لأن مروان لا صحبة له والمسور لم يحضر القصة. وقد ورد في البخاري عن عروة أنه سمع المسور ومروان يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ (الحديث ٢٧١١ و٢٧١٢)، وذلك في قصة الحديبية أيضًا. قال الحافظ: «وقد سمع المسور ومروان من جماعة من الصحابة شهدوا هذه القصة كعمر وعثمان وعلي والمغيرة وأم سلمة وسهل بن حُنيف وغيرهم ووقع في نفس هذا الحديث شيء يدل على أنه عن عمر» (فتح الباري جـ٥ ص٣٣٣). فظاهر الحديث الإرسال وحقيقته الاتصال.

استعداداً لحرب قريش إن حاربته ، فكان جواب النبي ﷺ أنه لا يرى أخذ السلاح ؛ وأنه يريد العمرة لا الحرب! وهذه المشاورة بين النبي وأصحابه هي المشاورة الوحيدة في أمر الحديبية كله ، اللهم إلا ما كان من استجابته لرأي أم سلمة في الحلق والذبح كما سيأتي ، لأن أمر الحديبية كان مبناه الوحي من أوله إلى آخره .

وأراد النبي ﷺ أن يتجنَّب لقاء جيش المشركين فأمر أصحابه أن يسلكوا طريقاً غير الذي يؤدي إلى مواجهة خالد وخيله ، قال رواة السيرة : « كره أن يلقاه وكان بهم ـ أي بقومه ـ رحيماً »[1] فأخذ يسأل أصحابه عمن يعرف الطريق الآخر ، وكان طريقاً وعراً ذا حجارة كثيرة وشوك وشجر ملتف (!)

وتناوب على قيادة الركب في ذلك الطريق الوعر بريدة بن الحُصَيْب فحمزة بن عمرو الأسلمي ، فعمرو بن عَبْدِ نُهم الأسلمي فكان هو الذي جاز بهم . فلما خرج المسلمون من الأرض الصعبة وأفضوا إلى أرض سهلة قال رسول الله ﷺ : « قولوا : نستغفر الله ونتوب إليه » فقالوا ذلك ، فقال : « والله

---

(١) سبل الهدى والرشاد، السابق ، ص ٦٣.

إنها للحطة[١] التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها » [حطة : كلمة دعاء بمعنى اغفر لنا ذنوبنا] ثم قال رسول الله ﷺ : « لا يجوز هذه الثنية الليلة أحد إلا غُفِرَ له »[٢].

وأدرك فرسان قريش ما صنعه المسلمون من سلوكهم الطريق البعيد عنهم فأسرعوا إلى مكة ليمنعوا النبي وأصحابه من دخولها .

* * *

ولم يكن الطريق الوعر الكثير الحجارة هو العقبة الوحيدة التي صادفت المسلمين قبيل الوصول إلى الحرم ، فإنهم لم يلبثوا ، حين تركوا الأرض الصعبة إلى الأرض السهلة ، أن فاجأتهم ناقة رسول الله ﷺ بالتوقف عن المسير ، وكان ذلك إرهاصًا[٣] جديدًا بأن الرحلة كلها تجري بصنع الله وتتم على عينه .

* * *

---

(١) إشارة منه ﷺ إلى قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:٥٨) .

(٢) مجمع الزوائد ، للهيثمي ، ط بيروت (د.ت) الحديث رقم ١٠١٧٧ ؛ والثَّنِيَّةُ واحدة الثنايا من السن وطريق العقبة.

(٣) الإرهاص هو الإثبات، وهو المقدمة المؤذنة بالشيء تأتي بين يديه فتدل عليه، واستعملته العرب في مقدمات المطر باعتباره خيراً (رَ: لسان العرب، مادة رهص)

(٣)

الناقة المحبوسة

« خلأت[1] القصواء . خلأت القصواء »!

هكذا قال الصحابة ، رضوان الله عليهم .

« ما خلأت القصواء ، وليس هذا لها بخلق - أو وما ذاك لها بعادة - ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة »[2]!

هكذا قال رسول الله ﷺ رداً على أصحابه .

ذلك أن الناقة لما هبطت إلى الأرض المطمئنة الواسعة بركت وأبت المسير ، فقال لها الناس« حَلْ حَلْ» [وهي صيغة تُزْجر بها الناقة لتتحرك] فبقيت مكانها لا تتحرك ، وألحّت في القعود حيث هي . عندئذ دهش الناس لصنيع الناقة ،

---

(١) الخلأ للإبل كالحِرانِ للدواب، يأبى الحيوان الحركة حيث يوجهه صاحبه أو راكبه .

(٢) حديث المِسْور بن مَخْرَمَة ومروان بن الحكم الذي سبق تخريجه (حاشية رقم ١ ص ٣٤) . وقد رواه أبو داود أيضًا عن المِسْور بن مَخْرَمَة برقم ٢٧٦٥ ، ط دار ابن حزم ، بيروت ١٩٩٨.

وقالوا : « خلأت القصواء » ، فأجابهم رسول الله ﷺ بكلامه السابق وأضاف: « والذي نفس محمد بيده لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها » وفي رواية : « .... لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها »[1] ثم زجر ناقته فقامت به ، فتوجه بأصحابه تلقاء الحديبية.

والناظر في تعقيب رسول الله ﷺ على سلوك ناقته ، وعلى حديث أصحابه عنها ، يعلم أنه أدرك منذئذ ، أو قبله ، أو أوحي إليه ، أو ألهم عند وقوعه ، أن أمامه مع قريش موقفاً قد ينتهي باتفاق لم يخطر من قبل بباله ولا ببال أحد من أصحابه . فهم لم يخرجوا إلا معتمرين ، ليس في نيتهم مفاوضة قريش ولا مقاضاتها[2] ، ولكن مقدمات اللقاء أخذت تبين أن الأمر ليس كما أرادوا ، وأن الحكمة الربانية تضمنت شيئاً آخر هو الذي عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله « حبسها حابس الفيل عن مكة » أي إنه علم عندئذ أنه لن

(١) الحديث السابق تخريجه.

(٢) المقاضاة في هذا السياق الوصول إلى القول الفصل في مسألة مختلف فيها. راجع النهاية لابن الأثير، السابق ص ٤٦٧.

يدخل بها مكة ؛ وبقوله « لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ». وهما عبارتان تشيران بوضوح إلى اتفاق وشيك بين المسلمين والمشركين ينهي الحرب التي استمرت ست سنين ، أو يوقفها مؤقتاً .

وقد استنبط الفقهاء من قوله ﷺ « ما خلأت وما ذاك لها بخلق » جواز الحكم على الشيء بما عرف من عادته ، وأنه إذا وقعت من شخص هفوة ، لا يعهد مثلها منه ، لا تنسب إليه ويرد على من نسبه إليها ، من الذين لا يعرفون حاله وطباعه. قالوا: ولم يعاتب النبي ﷺ أصحابه فيما قالوه عن الناقة لأنهم لا يعرفون عادتها !

وهذا استنباط سديد من حديث الرسول ﷺ . والأصل أن يظن المرء بالناس الخير كما يعرفه من نفسه ، وذلك كما قال تعالى في شأن الاتهام الظالم الباطل لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : ﴿ . . . . لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ . . . . ﴾ (النور: ١٢) . وكثير من الناس لا يراعون هذا الأصل في علاقاتهم الاجتماعية وصلاتهم الإنسانية ؛ ومخاطر الوقوع في إساءة الظن لا تحصى ولعل من أخطرها إفساد ذات البيْن التي قال رسول الله ﷺ إن

فسادها هي الحالقة «لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»[1].

وقد ذكَّر النبي ﷺ أصحابه - عندئذ - بقصة الفيل الذي منعته قدرة الله وإرادته عن دخول مكة - مع الفارق بين دخول المؤمنين المعظمين للبيت الحرام وبين دخول جيش الحبشة الذين كانوا يريدون هدم الكعبة المشرفة - لأن المسلمين لو دخلوا مكة عنوة وصدتهم قريش لوقع قتال في الحرم قد يفضي إلى سفك الدماء ونهب الأموال، وهو ما حالت دون مثله القدرة الإلهية عام الفيل، لما سبق في علم الله تعالى من أن أهل مكة سيدخل في الإسلام منهم خلق كثير، وسيكون من أبنائهم المسلمون المجاهدون في سبيل الله لنصرة دينه.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي الدرداء وأورده الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٣٠٣، ط دار الصديق، المملكة العربية السعودية ١٩٩٤؛ ورواه أبو داود عنه وأورده الألباني برقم ٤١١١ من صحيح السنن، ط مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٩٨٩؛ وهو في صحيح سنن الترمذي برقم ، ٢٠٣٧، ط مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٩٨٨؛ ورواه الترمذي عن أبي هريرة وأبي الدرداء برقم ٢٥٠٨ و٢٥٠٩ من طبعة دار المعرفة بيروت ٢٠٠٢ بتحقيق خليل مأمون شيحا، دون قوله «لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»، وذكر الترمذي هذا اللفظ مسبوقًا بقوله: «وروي عن النبي... أنه قال» فذكره.

وزاد الأمر صعوبة في عمرة الحديبية أن مكة كان يعيش فيها جمع كثير من المسلمين المستضعفين كان من المحتمل ، بل الراجح ، لو دخل النبي وأصحابه مكة ووقع قتال ، أن يصاب بعض هؤلاء ، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ . . . . **وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ**. . . . ﴾ (الفتح:٢٥) .

فكأن ربنا ـ تبارك اسمه ـ منع الحرم من أن يُدْخَلَ عنوة مطلقاً ، فأما من أهل الباطل ـ كأصحاب الفيل ـ فلِما هو ظاهر من قبح ما قصدوه وفساده ، وأما من أهل الحق ـ كأصحاب النبي ـ فللمعنى الذي ذكرته . وبهذا المنع الإلهي تمت للبيت والبلد حرمتهما الباقية إلى يوم القيامة . ولا يُعترض على ذلك بما وقع من الجماعة المحاربة التي عرفت (بجماعة جهيمان العتيبي) الذين احتلوا المسجد الحرام في شهر المحرم من عام ١٤٠٠هجرية. فهؤلاء دخلوا البيت مسلمين معظمين له في الظاهر ، ولم يدخلوه بجيش مسلح شأن المحاربين الفاتحين. ثم إنهم انتهكوا الحرمة المقررة شرعًا والمحفوظة واقعًا بجرائم عوقبوا عليها ، فكان شأنهم شأن أي مرتكب لمعصية في الحرم لا شأن الجيش الذي يهتك حرمة المكان كله بدخوله عنوة . والله أعلم .

وليس في شيء من طرق الحديث الذي يرويه العلماء عن واقعة الناقة وحبسها ، وتعهد النبي ﷺ بقبول مما تدعوه قريش إليه من عهد يريدون به تعظيم حرمات الله أو صلة الرحم ـ كما قال الإمام السهيلي في كتابه الروض الأنف ـ أنه قال « إن شاء الله »! وقد علل العلماء ذلك بتعليلات أصحها أن التعليق على المشيئة سقط من الراوي .

وبينوا أن قول النبي ﷺ « والذي نفس محمد بيده » يدل على جواز تأكيد القول باليمين ليكون أدعى إلى القبول. قال الإمام محمد الصالحي في كتابه (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد): « وقد حفظ عن رسول الله ﷺ الحَلِفُ في أكثر من ثمانين موضعاً »[1]. وقال مثله عدد من العلماء الحفاظ. فليتأمل إخواننا من أهل التشديد على الناس ما في هذا المحفوظ عن الرسول ﷺ من تخفيف على المسلمين. نعم ترك الحلف في الصغائر والتوافه وأمور العادات أفضل وأحب إليَّ ، ولكن التشدد في تحريمه غير صحيح .

* * *

(١) محمد الصالحي ، المرجع السابق، ص ١١٦.

(٤)

كبـــر كـــاذب

الحديبية مكان قريب من مكة المكرمة ، بينه وبين مكة نحو يوم واحد بسير الراكب ، أو نحو مرحلة واحدة . وقد سميت باسم بئر كانت هناك ، وقيل سميت بالحديبية لأنها كانت فيها شجرة حدباء . وأكثر الحديبية في الحرم[1]. وقد نزل رسول الله ﷺ وأصحابه فيها على بئر قليل ماؤها ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، وكان اليوم شديد الحر ، فاشتكى الناس إلى رسول الله العطش وقلة الماء ، فأتاهم النبي ﷺ ، فجلس على حافة البئر ، ثم دعا بإناء فتوضأ فيه ثم مضمض ودعا ، ثم صب الماء في البئر وانتزع سهماً من كنانته فأعطاه ناجية بن الأعجم ، رضي الله عنه ، وأمره أن يثير بالسهم ماء البئر. قال ناجية بن الأعجم « ففعلت ، فوالذي بعثه بالحق ما كدت أخرج حتى يغمرني (أي الماء) وفارت كما يفور القدر ، حتى

---

(١) المقصود بالحرم هنا الحرم بمعناه العام ، وهو مساحات تحيط بمكة من جميع نواحيها عليها أعلام في بداية كل منها تحدد (حدود الحرم). وليس المقصود الحرم المكي بالمعنى الخاص وهو المسجد الحرام .

طمَّت (ارتفع ماؤها) واستوت بشفيرها (بلغ الماء أعلاها)... حتى نهلوا عن آخرهم (أي ارتووا جميعاً)»[1] وأصحاب رسول الله يومئذ نحو ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة ! وكان على الماء يومئذ نفر من المنافقين فيهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، فقال له أوس بن خَوْليِّ - رضي الله عنه - « ويحك يا أبا الحباب! أما آن لك أن تبصر ما أنت عليه؟ أبعد هذا شيء». أي إلى متى تبقى على نفاقك وأنت ترى الآيات الدالة على صدق محمد ﷺ ، أليس هذا الأمر الخارق لكل عادة كافياً لتؤمن إيماناً حقيقياً وتخلص من نفاقك القبيح؟ وهي كلمات لو قيلت لذي قلب يعقل لدلَّتْهُ على طريق الهدى ولَرَدَّتْهُ عن سبيل الضلال الذي كان فيه عبد الله بن أبي . لكن المنافقين ﴿ **لَا يَفْقَهُونَ** ﴾ (المنافقون:٧) و ﴿ **لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (المنافقون:٨) .

فقد رد عبد الله بن أبي على أوس بن خوليٍّ بقوله:« إني قد رأيت مثل هذا»!!

فأجابه أوسُ بقوله: « قبَّحك الله وقبَّح رأيك»!

وذهب عبد الله بن أبيّ إلى حيث كان يجلس رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله - وهو لم يكن بحيث يسمع حواره

---

(١)رواه البخاري وغيره من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، السابق تخريجه .

مع أوس بن خوْليّ - « أي أبا الحباب : أين رأيت مثل ما رأيت اليوم؟ »

قال عبد الله بن أبي : « ما رأيت مثله قط ! »

قال رسول الله ﷺ : « فَلِمَ قُلْتَه ؟ ! »

قال ابن أبيّ : « يا رسول الله استغفر لي » وفي رواية أنه قال « أستغفر الله ».

وقال ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ - رضي الله عنه - « يا رسول الله استغفر له ». فاستغفر له رسول الله ﷺ.[1]

إن هذا الرجل ، ونظراءه من المنافقين ، لم يمنعهم من صدق الإيمان بنبوة محمد ﷺ أنهم لم يروا الآيات الدالة على هذه النبوة ، ولا أنهم لم يفهموا القرآن العربي الذي كان ينزل عليه فيتلوه على الناس - وهم منهم - ولا أنهم كانوا يرونه ساحراً أو كاهناً أو شاعراً ، كما كان بعض الحمقى من قريش ، ومن والاها ، يزعمون في أول البعثة النبوية ، ولكن الذي كان يحمل هؤلاء الذين « مردوا على النفاق » ، من أهل المدينة ، على نفاقهم كان نوعاً من الكبر الكاذب ملك عليهم نفوسهم : أنهم يكونون أعظم ، في نظر الناس ، وأعلى مكانة ،

---

(١) الصالحي ، السابق ، ص ٦٨ .

إذا أعلنوا مخالفتهم لما عليه عامة أهل المدينة من اتباع محمد والإيمان به ، والنزول على حكمه ، والانقياد لأمره ونهيه .

وقد أوردهم هذا الكبر الكاذب موارد الهلكة ، فقد كانوا ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ (النساء:١٤٢) ووصفهم القرآن الكريم بأنهم : ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة:٦٧) ولم يكونوا يَخْفَونَ على الله تبارك وتعالى ، بل كانت حالهم بينة ﴿ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴾ (العنكبوت:١١) . وأمر القرآن الكريم رسول الله ﷺ أن يبشر ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء:١٣٨) وأخبر القرآن الكريم عنهم أنهم : ﴿ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (النساء:١٤٥) وكفى بذلك خزياً وسوء مصير .

وقد نبأ القرآن الكريم رسول الله ﷺ بأن الذي يحمل المنافقين على ما يفعلون هو ذلك الكبر الكاذب ، فقال ربنا سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ (غافر:٥٦) وهذه الآية مدنية ـ كما قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره ـ فهي تتناول كل من جادل في

آيات الله بغير سلطان من أهل المدينة من اليهود والمنافقين ، وقيل : كل من كفر بالنبي ﷺ ، قال القرطبي : « وهذا حسن ». والمقصود بالسلطان هو الدليل والبينة التي تنهض حجة لصاحبها وشاهدةً على صحة قوله أو معتقده . وهيهات أن يجد هذا الدليل أو تلك البينة المنافقون وأشباههم أو أتباعهم، لا في زمان النبي ﷺ وحده ، بل في كل زمن ومكان .

ولا شك أن الكبر في المنافقين أظهر منه في سواهم بدليل استكبار رأسهم عبد الله بن أبي عن التسليم للآية الظاهرة في فوران ماء البئر وزيادته أمام عينيه وقوله كذباً « قد رأيت مثل هذا». كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً. وانظر ـ مع ذلك كله ـ إلى قول جابر بن عبد الله ، رضي الله عنه ، لمن سأله: كم كنتم؟ قال «لو كنا مائة ألف لكفانا(!) كنا خمس عشرة مائة»[1] ، تعرف الفرق بين يقين المؤمن وريبة المنافق .

* * *

(١)متفق عليه من حديث جابر، البخاري برقم ٣٥٧٦ و٤١٥٢، ومسلم برقم ١٨٥٦ مختصراً .

(٥)
المؤمنون بالكواكب!

روى الأئمة البخاري ومسلم ومالك ـ وغيرهم ـ عن زيد ابن خالد الجهني أنه قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إِثْر سماء كانت من الليل، فلما انصرف (يعني سلَّم من الصلاة)، أقبل على الناس فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال (أي قال رسول الله: قال الله عز وجل): أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»[1].

والمراد بقول الراوي «على إثر سماء»: في أعقاب مطر نزل عليهم في تلك الليلة، والعرب تقول السماء وتريد بها المطر النازل منها.

---

(١) في البخاري برقم ٨٤٦، وفي مسلم برقم ٧١، وفي الموطأ، الحديث رقم ٨٢٥، ط بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤، واللفظ هنا للبخاري.

وقد دفع رسول الله ﷺ إلى هذا البيان أن عبد الله بن أبيّ ــ رأس المنافقين ـ قال لما نزل ذلك المطر: « هذا نوء الخريف ، مطرنا بالشِّعرى »[1]. وكانت العرب تنسب المطر إلى الكواكب في ظهورها في السماء واختفائها منها.

فجاء حديث النبي ﷺ في هذه الحادثة ناقلاً عن رب العزة ـ تبارك اسمه ـ نفي هذا الاعتقاد الجاهلي ، ورادّاً قول المنافق الذي يقرره ، ومبيناً كفر من اعتقد أن للنوء (النجم الساقط أو الطالع) تأثيراً من أي نوع في نزول المطر أو عدم نزوله ، وأن ذلك كله إنما يعود إلى رحمة الله بالناس وفضله عليهم .

فمن نسب الفضل في ذلك الخير الذي يصيب الناس ـ أي المطر ـ إلى الله تعالى وحده فهو مؤمن بالله ، سبحانه ، كافر بما دونه مما ينسب الناس إليه تأثيراً وفعلاً ، من الكواكب وغيرها . ومن نسب ذلك المطر إلى الكوكب ، الذي طلع في السماء أو اختفى منها ، فهو كافر بالله تعالى لأنه ينكر انفراده ـ سبحانه ـ بالخلق والأمر والإنشاء .

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ط الرياض، المجلد ٢، ص ٥٢٤؛ محمد ابن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، جـ ٥، ص ٧٠.

وقد نبه القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (فاطر:٣) . وبقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ (لقمان:٣٤).

وفي بعض روايات الحديث أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال : «ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح طائفة منهم بها كافرين . يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا . فأما من آمن بي وحَمِدني على سقياي فذاك الذي آمن بي وكفر بالكوكب ، ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك الذي كفر بي وآمن بالكوكب»[1] وفي رواية ثالثة صحيحة عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا»[2].

ولهذه الروايات الصحيحة فرَّق العلماء بين من اعتقد أن الكوكب ـ أي النوء ـ فاعل مدبر منشئ للمطر ، كما كان

(١) سنن النسائي، ط بيت الأفكار الدولية ١٩٩٩، الحديث رقم ١٥٢٥، وهو نفسه حديث زيد بن خالد الجهني، السالف ذكره، بسند مختلف ولفظ مختلف.

(٢) صحيح مسلم رقم ٧٣.

بعض أهل الجاهلية يزعم ، وبين من اعتقد أن المطر من فضل الله ورحمته ، ولكنه ذكر النوء باعتباره علامة له وميقاتاً، على النحو الذي جرت به العادة من معرفة أكثر الناس بمواقيت نزول المطر وعلامات قربه ، فكأن هذا قال : مطرنا في وقت كذا. فأما الأول ـ المعتقد أن للنوء تدبيراً وفعلاً ـ فهو عند العلماء لا شك في كفره. وأما الثاني الذي يعتبر النوء ميقاتاً وعلامة ـ فهذا ليس بكافر ولكنه مخطئ لاستعماله لفظاً يدور بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائله ، ولأنه كلام من شعار الجاهلية ومن كان على شاكلة أهلها ـ من مثل المنافق الذي قال مطرنا بالشِّعرى ـ فالأولى ترك هذا اللفظ لأنه مكروه . قال الإمام النووي ، في شرح صحيح مسلم : « لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها ». وقال ابن حجر في فتح الباري : « من اعتقد أن ذكر النوء من قبيل التجربة فليس بشرك » ونقل عن الشافعي : أن « من قال مطرنا بنوء كذا وهو يقصد في وقت كذا لا يكفر »[1].

ويجوز أن يكون تأويل الحديث أن الكفر المذكور فيه هو كفر النعمة الإلهية ـ وهذا في حق من لا يعتقد أن التأثير للكوكب ـ ويدل لصحة هذا التأويل الروايات التي فيها ذكر

(١) فتح الباري ، مجلد ٢ ، ص ٥٢٣ و ٥٢٤.

نعمة الله والكفر بها ، وذكر الشكر والكفر في مقابلته ، لأن هذه العبارات تدل على أن المراد هنا هو كفر النعمة لا كفر الملة . ولذلك كان أبو هريرة ﷺ يقول عند نزول المطر : « مطرنا بنوء الفتح » ، ثم يتلو قول الله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ (فاطر:٢) . قال الإمام أبو عمر بن عبد البر : « وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ ، « مطرنا بفضل الله ورحمته » [١].

فتأمل الفرق بين نسبة المطر إلى رحمة الله ونعمته وفضله ، ونسبته إلى شيء من خلقه ، تَعْلَم الفرق بين من أخلص دينه لله ومن شابته فيه شوائب الكفر أو النفاق .

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ط وزارة الأوقاف المغربية ١٩٨٥، جـ ١٦، ص ٢٨٦، وقد ذكر في هذا الموضع سؤال عمر بن الخطاب للعباس عم رسول الله ﷺ عندما استسقى به: « يا عم رسول الله كم بقي من نوء الثريا... » قال ابن عبد البر فكأن عمر رحمه الله قد علم أن نوء الثريا وقت يرجى فيه المطر ويؤمل، فسأله عنه: « أخرج أم بقيت منه بقية ». وذكر أن مالك بن أنس كره أن يقول الرجل للغيم والسحابة: وما أخلقها للمطر، واستدل بذلك على احتياط العلماء ومنعهم الناس من الكلام بما فيه أدنى تعلق بما كان يقوله أهل الجاهلية .

وانظر: محمد زكريا الكاندهلوي ، أوجز المسالك إلى موطأ مالك ، طبعة مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات، الهند ، ٢٠٠٣ ، جـ ٤ ص١٦٠.

وتأمل حِلْمَ رسول الله ﷺ على ذلك المنافق الذي أنكر المعجزة في عودة الماء إلى البئر كثيراً وفيراً بعد أن أوشكت على الجفاف ، ونسب المطر إلى النوء والزمن لا إلى الله وحده ، تَعْلَم كم يبتعد عن الهدي النبوي أولئك الذين يتشددون في غير موضع الشدة ، ويكفرون المؤمنين بالريبة والشك والشبهة ، وينفرون الناس بحملهم قسراً على ما يرونه هم ، ولو كان عارياً عن الدليل خالياً عن الحكمة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله وحده !

* * *

(٦)

التيسير على الناس

من معالم الإسلام التي لا يجهلها عارف بأحكامه التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم. وهو مَعْلَمٌ قرره القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (الحج:٧٨) وقوله : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ (المائدة:٦) حتى قال العلماء إن نفي الحرج من ثوابت الإسلام التي تميز شريعته وفقهه .

وقد تجلت في قصة الحديبية صور من تطبيق الرسول ﷺ لهذا المعلم الزكي من معالم الإسلام ، يتعلم الواقف عليها خطة رشد في الدعوة والتربية تحبب المسلمين في دينهم ، وتقرب إليهم الالتزام به. لقد سمعت من بعض تلامذة المدارس في مصر أن المدرس ـ أو المدرسة ـ يضرب التلميذ الذي صلى الفريضة وحده قبل أن تقام الجماعة في مصلى مدرسته ، إما لأنه ظن أن الجماعة سبقته أو لأنه كان متعجلاً ليدرك درساً بدأ أو أوشك على البدء. ولو أن هؤلاء

المربين تأملوا فيما صح وثبت عن رسول الله ﷺ من التيسير على الناس ، وهو كثير متوافر في الكتب والمرويات النبوية حتى وصف ﷺ بأنه «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه»[1] - أقول لو أنهم تأملوا في ذلك لتغير منهجهم في تربية البنين والبنات وتوجيههم ، لاسيما فيما يتصل بالدين نفسه الذي مبنى أحكامه كلها على التيسير ورفع الحرج .

* * *

في رحلة عمرة الحديبية أصاب الناس مطر «لم يبل أسافل النعال» - كما وصفه الراوي - فنادى منادي رسول الله ﷺ أن «صلوا في رحالكم»[2]. والصلاة في الرحال تعني أن يصلي الناس فرادى وألا يلتزموا بإقامة الجماعة الواجبة أصلاً في كل صلاة . ووصف المطر بأنه لم تبل منه أسافل النعال يعني أنه

---

(١) متفق عليه من حديث السيدة عائشة وهو في البخاري برقم ٣٥٦٠ و٦٧٨٦ وفي مسلم برقم ٢٣٢٧ بلفظ مختلف .

(٢) المتقي الهندي ،كنز العمال، ط بيت الأفكار الدولية ، عمّان ، ٢٠٠٥ عن أسامة بن عمير الحديث رقم ٢٣٠٦١؛ ورواه ابن ماجه وأحمد عن أبي مليح وهو في سنن ابن ماجه الحديث رقم٩٣٦ منَ طبعة دار المعرفة بيروت ١٩٩٨ بتحقيق خليل مأمون شيحا؛ وفي مسند أحمد برقم ٢٠٩٨٣ .

كان مطراً خفيفاً لا يؤذي ، ولا تتحول التربة الرملية بسببه إلى تربة طينية يصعب الخوض فيها ، ولا تبتل منه الملابس بللاً يزعج مرتديها ، ومع ذلك فإن النبي ﷺ أمرهم - تخفيفاً عليهم وتعليماً لهم - أن يصلوا في الرحال . وينبغي للمتفقه أن يستحضر هذا الحديث النبوي كلما نظر في كتب المذاهب فوجد بعضها يشترط أن يكون من أثر المطر طين يصعب السير فيه ، وبعضها يمنع استعمال عذر المطر في صلاتي الظهر والعصر (أي يمنع الجمع بينهما بسبب المطر) وبعضها يمنع الصلاة في البيت لمن كان يسكن قريباً من المسجد أو غير ذلك من الشروط التي لم ترد بها سنة صحيحة تفيد التضييق من الرخصة كما قررها رسول الله ﷺ .

ومرَّ رسول الله ﷺ بكعب بن عُجْرة ، رضي الله عنه ، وقد أصابته هوام رأسه - وكان غزير الشعر وأصابته حشرات كالقمل ونحوه - وكان كعب محرماً ، فسأله رسول الله ﷺ : « أيؤذيك هوام رأسك »؟ قال كعب : « نعم » قال النبي ﷺ : « ما كنت أرى الجهد بلغ بك هذا ! » وأمره أن يحلق رأسه - وهو محرم - فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة:١٩٦) فدعاه رسول الله ﷺ وقال له : « صم ثلاثة أيام ،

أو أطعم ستة مساكين فَرَقاً (مكيال يسع ستة عشر رطلاً أو ثلاثة أصواع) أو انسك ما تيسر لك (أي اذبح شاة أو نحوها) »[1].

فكان التيسير على هذا المريض من رسول الله ﷺ موافقاً لحكم الله الأزلي ، الذي نزل به القرآن الكريم، ليكون تخفيفاً دائماً وتيسيراً مستمراً على الناس كافة إلى يوم القيامة ، لا على كعب ابن عُجْرَة وحده . وأخذاً بمبدأ التيسير ورفع الحرج قاس الفقهاء غير المعذور (في حلق رأسه وهو محرم) على المعذور ولم يوجبوا عليه إلا الفدية التي أوجبها القرآن الكريم على ذي العذر .

وفي قصة كعب بن عجرة ، ونزول القرآن بشأنه دليل للقاعدة الأصولية « تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ».

ورخَّص رسول الله ـ في رحلة الحديبية ـ لأصحابه وهم محرمون أن يأكلوا من صيد البر الذي لم يصده مُحْرِم ، ولم يصده صائده لأجل إطعامه هؤلاء المحرمين. بل لقد أكل ﷺ هو نفسه من لحم حمار وحشي صاده أبو قتادة ـ ولم يكن محرماً ـ وأهدى عضده إلى الرسول ﷺ فأكل منها.[2]

---

(١) متفق عليه من حديث كعب بن عجرة في البخاري برقم ١٨١٤، وفي مسلم برقم ١٢٠١.

(٢) متفق عليه من حديث قتادة، البخاري برقم ١٨٢١ و١٨٢٢ و٢٨٥٤؛ ومسلم برقم ١١٩٦.

وأنزل الله ـ سبحانه ـ حكم صلاة الخوف في الحديبية تخفيفاً على المسلمين الذين واجهتهم خيل قريش بقيادة خالد ابن الوليد . فبعد أن صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة الظهر ندم المشركون أنهم لم يميلوا على المسلمين في أثناء الصلاة فينالوا منهم ويصيبوهم . فقال لهم خالد بن الوليد: « قد كانوا على غرة (أي مشغولين بالصلاة) لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتي الساعة صلاة أخرى هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم» فنزل جبريل بين صلاتي الظهر والعصر[1]

بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(النساء:١٠٢)

---

(١) يأتي تخريجه في فصل (حديث الوحي).

فصلى بهم رسول الله صلاة العصر ، صلاة خوف ، فقال المشركون : « لقد أخبروا بما أردنا »[1] (!) قال الإمام القرطبي « وهذا كان سبب إسلام خالد رضي الله عنه »[2].

لقد أراد خالد أن يتحين وقت صلاة العصر - التي وصفها بأنها أحب إلى المسلمين من أنفسهم وأبنائهم - ليهاجم المسلمين على غِرَّةٍ لكن الله حال بين نبيه وأصحابه وبين المشركين فلم ينالوا منهم ، وخفف عليهم في صلاتهم فكانت الحديبية كلها مغمورة بمظاهر التيسير الإسلامي من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وكفى بذلك خيراً يوجب علينا أن نتذكر معالمها وآياتها .

* * *

---

(١) تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط محمود وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر، ط الثانية ١٩٧٢، جـ٩، ص ١٥٦.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، ط دار الكتب المصرية ، جـ٥ ص٣٦٤.

(٧)

الخلق العظيم

وصف القرآن الكريم رسول الله ﷺ بأنه على خلقٍ عظيم، وجعل الرسول ﷺ من أسباب رسالته أن يتمم مكارم الأخلاق ، فقال: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وفي بعض الروايات الصحيحة « لأتمم حسن الأخلاق »[١].

والناس يعرفون أن ذوي الخلق الحسن منهم يكونون عليه في أوقات رخائهم وأمنهم وراحتهم ، فإذا انشغل الواحد منهم بهمٍّ من الهموم العارضة ، أو ضاقت به بعض أحواله ، أو استغرق في شأن من الشؤون العامة أو الخاصة تبدل منه

---

(١) هذا الحديث روي بألفاظ (مكارم) و(صالح) و(حُسن) الأخلاق؛ فأخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة بلفظ «بعثت لأتمم صالح الأخلاق»، رقم ٤٢٧٤، من طبعة دار الفكر، بيروت ٢٠٠٢، بتحقيق محمود مطرجي؛ ورواه مالك في الموطأ بلاغًا برقم ٣٨٧٠ بلفظ «بعثت لأتمم حسن الأخلاق»، وقال عنه ابن عبد البر في التمهيد ، جـ٢٤ ص ٣٣٣ : «وهذا الحديث يتصل من طرق صحاح، عن أبي هريرة وغيره عن النبي ﷺ»؛ ورواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة؛ وأورده الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٢٠٧؛ وانظر الألباني، الأحاديث الصحيحة، طبعة المكتبة الإسلامي جـ١ ط٤ ؛ ١٩٨٥ رقم٤٥.

حسن الخلق سوءًا ، وأصبحت سعة صدره ضيقاً ، وصدَّ عنه أقرب الناس إليه حتى أهله وولده ، بل ربما كان على هؤلاء أجرأ منه على سواهم لأنهم يقبلون منه ، ويحتملون له ، مالا يقبله غيرهم ولا يحتمله .

وهذا كله سلوك إنساني طبيعي لأنك لا تتوقع من الناس أن يكونوا على الجادة في أحوالهم كافة ، أو أن يكونوا في رضا دائم لا يخالطه سخط ، أو في هدوء مستمر لا يشوبه غضب ، ولا يكون الرجل في غضبه كما يكون في هدوئه ولا في سخطه كما يكون في رضاه اللهم إلا إن كان من الأفذاذ النوادر الذين يتخلقون بأخلاق الأنبياء وقليل ما هم !

والقارئ لسيرة الرسول ﷺ لا يجده تخلى عن حسن خلقه ، وكريم طبعه ، في أي موقف من مواقف حياته ، لا في الإقامة ولا في السفر ، ولا في الحرب ولا في السلم ، ولا في الرضا ولا في الغضب ، بل كان حسن الخلق ولين الطبع ملازمين له حتى قال ربنا مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ (آل عمران:١٥٩) .

وفي الحديبية تكررت المواقف التي تبدى فيها حسن خلق الرسول ﷺ ولين جانبه وسعة صدره. فقد ذكرت من قبل أنه لما قال له عبد الله بن أبي بن سلول : استغفر لي ،

استغفر الله له بعد ما كان منه من جحد معجزة فيضان البئر بالماء بعد أن كادت تجف ، ولم يكن ذلك إلا حسن صحبة من رسول الله ﷺ حتى للمنافق الذي عرف نفاقه[1].

ومن هذه المواقف النبوية المضيئة أن عمرو بن سالم وبُسْر ابن سفيان الخزاعيين أهديا إلى رسول الله ﷺ بالحديبية غنماً وجَزوراً (الجَزُور الواحد من الإبل يطلق على الأنثى والذكر) وأهدى عمرو بن سالم - أيضاً - لسعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، وكان صديقاً له ، جُزراً ، فجاء سعد بالجُزُر (جمع جزور) إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن عمراً أهداها له ، فقال: « وعمرو قد أهدى لنا ما ترى ، فبارك الله في عمرو »[2].

ثم أمر رسول الله ﷺ بالجزر أن تنحر وتقسم في أصحابه، وفرَّق الغنم عن آخرها ، وجعل قسمتها بين أصحابه جميعاً ، الرجال منهم والنساء ، حتى كان نصيب أم سلمة من لحم الجزور كنصيب الرجل من أصحاب النبي ﷺ ، وشرَّك في الشاة التي كانت من نصيبه (أي جعلها شركة تقسم بين أصحابه) فكان لأم سلمة نصيب منها .

---

(١) راجع فصل (كبر كاذب).
(٢) الصالحي ، السابق ، ص ٧٠.

ولم يكن ذلك أمراً غير معتاد من رسول الله ﷺ ، بل كان ذلك سلوكه الدائم مع نسائه رضي الله عنهن ، ففي الحديث الصحيح أن رجلاً فارسياً كان جاراً لرسول الله ﷺ ، وكان يجيد صنع المرق ، فصنع لرسول الله ﷺ مرقاً ثم جاء يدعوه ، فقال: «وهذه؟» أي عائشة (يعني هل تدعوها معي؟) فقال «لا». قال رسول الله ﷺ: «لا». ثم عاد يدعوه فقال رسول الله ﷺ : «وهذه؟» قال : «لا». قال رسول الله ﷺ : «لا». ثم عاد يدعوه فقال رسول الله ﷺ : «وهذه؟» قال الرجل : «نعم !» فقام النبي ﷺ وعائشة يمشيان حتى أتيا منزله وأكلا [1].

فحسن معاملة الرسول ﷺ لنسائه كانت من خلقه العظيم المستمر الذي لا يصرفه عنه حال من أحواله في سفر ولا حضر. وانظر إلى دعائه لعمرو بن سالم مكافأة على هديته ، وقد أمر لبسر بن سفيان بكساء للتعبير عن تقديره ﷺ لما صنعاه؛ ثم إلى أمره بقسمة الجزر بالسوية بين أصحابه الرجال والنساء ، تجد ذلك كله دليلاً على الخلق العظيم الذي وصفه القرآن به فكان علامة له لا يخطئها الناظر في سيرته ، ومسلكاً دائماً لا يتغير في أحواله كلها ﷺ .

* * *

(١) رواه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه الحديث رقم ٢٠٣٧ .

(٨)

رُسُلُ قريش ..

ارتجت مكة لما بلغها أن رسول الله ﷺ قد أقبل يريد أن يدخلها معتمراً في ذلك الجمع من أصحابه . فاجتمع المشركون وتعاهدوا ألا يدخل عليهم النبي ﷺ مكة من هذا العام . قالوا: أيريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمراً ، فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عَنْوةً ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ؟ ! والله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف !

وخرجت قريش يقودها خالد بن الوليد في مائتي فارس ، واستنفروا من أطاعهم من القبائل ، ومنهم ثقيف وزعيمها آنئذ عروة بن مسعود الثقفي ؛ وكان النبي ﷺ قد بعث بسر بن سفيان ليعرف له خبر قريش ، فعاد إليه بما عرفه من عزمهم على منعه من دخولها ذلك العام ، واستعدادهم للحرب في سبيل ذلك .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالحديبية ، جاءه بُدَيْلُ ابن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه ، لم يكونوا كلهم أسلموا

ولكنهم كانوا ممن يقدرون رسول الله ﷺ قدره وينصحون له مخلصين ، وكانوا لا يخفون عن رسول الله ﷺ شيئاً . فأتوا رسول الله وأخبروه خبر قريش ، وأنهم « أقسموا بالله لا يخلون بينه وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم ». فقال لهم رسول الله ﷺ : « إنا لم نأت لقتال أحد ، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت ، فمن صدَّنا عنه قاتلناه . إنَّ قريشاً قد أضرَّت بهم الحرب ونَهكَتْهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة يأمنون فيها ، ويخلون بيني وبين الناس... وإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، أو يقاتلوا وقد جَمَّوا (أي استراحوا واستعادوا قوتهم) وإن هم أبوا فوالله لأجهدن على أمري هذا ... ولينفذن الله ، تعالى ، أمره »[1] !

فلما عاد بُدَيْلُ وركبه إلى قريش قال أناس منهم (أي من قريش): « إنهم يريدون أن يستخبروكم (أي يطلبوا خبركم) فلا تسألوهم عن حرف واحد (لأن قريش لو سألت بديل ابن ورقاء وصحبه فأجابوا كان غير لائق بقريش ألا تجيب على أسئلتهم !).

---

(١) سبق تخريجه من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في المسند الحديث رقم ١٩١١٧ والبخاري برقم ٢٧٣١ و٢٧٣٢.

قال لهم بُدَيْلُ : « إنا جئنا من عند محمد ، أتحبون أن نخبركم عنه ؟ »

فقال عكرمة بن أبي جهل والحكم بن العاص: « ما لنا حاجة أن تخبرونا عنه ، ولكن أخبروه عنا أنه لا يدخلها علينا عامه هذا أبداً حتى لا يبقى منا رجل ! » ولكن قوماً من قريش أحبوا معرفة خبر النبي ﷺ فقالوا لبديل ومن معه « أخبرونا عنه »، فقال لهم بُدَيْلُ :« إنكم تعجلون على محمد ، إنه لم يأت لقتال ، إنما جاء معتمراً» وقص عليهم مقالة رسول الله له . ولكن قريشًا ركبت رأسها ، واستبد بزعمائها استكبارهم ، فقالوا لن يدخلها محمد علينا من عامه هذا أبداً !

وكان مع قريش عروة بن مسعود الثقفي في نفر من قومه ، وقريش أخواله فإن أمه كانت سُبَيْعة بنت عبد شمس القرشية ، فعرض على قريش أن يذهب بنفسه إلى النبي ﷺ ليعرف خبره ويكون عيناً لقريش عليه . فبعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ، فجاءه وكرر عليه موقف قريش ، وقال له « إنك من قتالهم بين أحد أمرين : بين أن تجتاح قومك ، ولم يُسْمَعْ برجل اجتاح قومه وأهله من قبل؛ أو بين أن يخذلك من ترى معك» واستخف بمن مع النبي ﷺ من الصحابة ،

فرد عليه أبو بكر رداً قاسياً ، وأخذ عروة يمد يده إلى لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه (وهي من عادات العرب إذا أراد المتحدث أن يظهر بره ووده لمن يكلمه أو إشفاقه عليه) فجعل المغيرة بن شعبة ـ وكان واقفاً على رأس رسول الله ﷺ، وبيده السيف ـ كلَّما مدَّ عروة يدَهُ يَقْرعها بأسفل قراب السيف ويقول له : « « اكفف يدك عن مسِّ لحية رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك! » وذلك كراهة أن يمس لحية رسول الله مشرك . والمغيرة بن شعبة أبوه ابن أخي عروة بن مسعود[1] ، وكان قد لبس المغفر حين رأى عمه قادماً لئلا يراه عمه ! (المغفر غطاءٌ للرأس يخفي الوجه يلبسه المحارب تحت القلنسوة) فغضب عروة من كثرة ما صنع المغيرة به هذا ، وقال للنبي ﷺ : « ليت شعري ! ! من هذا الذي آذاني من بين أصحابك ؟ والله لا أحسب فيكم ألأم منه ولا أشرَّ منزلة ». وقال للمغيرة : « ما أفظك وأغلظك!! » فقال له رسول الله ﷺ ـ وهو يبتسم ـ « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » فكلمه عروة بكلام يذكره فيه بفضل له عليه وبقتيل من ثقيف قتله المغيرة قبل الإسلام وتحمل ديته عروة بن مسعود .

---

(١) أي إن عروة بن مسعود هو عم شعبة أبو المغيرة بن شعبة .

وردَّ رسول الله على عروة بمثل ما رد به على بُـدَيْلُ بـن ورقاء . وعاد عروة إلى قريش فأخبرهم الخبر ، ووصـف لهـم تعظيم أصحاب النبي ﷺ إياه ، وأنهم لـن يسـلموه أبـداً ، وأن الرجال والنساء مـنهم في ذلـك سـواءً . وقـال عـروة لقـريش: « والله لقد رأيت معه نساءً ما كن ليُسْلِمْنَهُ على حال »!

ونصح عروة قريشاً ألا تحول بين المسلمين وبين البيت، فأبوا ! فقال لهم عروة بـن مسـعود : « مـا أراكـم إلا تصـيبكم قارعة »[1]. وانصرف هو ومن معه من ثقيف إلى الطائف .

وأرسلت قريش بعده إلى النبي ﷺ الحُلَيْس بـن علقمـة الكناني أحد رؤوس قبائل مكة ، فأرسل النـبي أمـامـه الهـدي ـ وكان من قوم يعظمون الهدي ويتـألهون[2] ـ فلمـا رآه قـال : « سبحان الله ! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت... هلكت قريش ورب الكعبة »! ثم عاد إلى قريش فأمرهم بمثل ما أمر به عروة بن مسعود ، فلما أبوا انصـرف بمـن معـه مـن قبيلتـه وحلفائها غاضباً مما تصنع قـريش بقـوم أرادوا اعتمـار البيـت وساقوا الهدْيَ ! [3]

---

(١) الصالحي، السابق، ص ٧٢-٧٥.

(٢) يتألهون أي يتعبدون ويتنسكون.

(٣) السابق، ص ٧٥-٧٦.

وهكذا عادت رسل قريش إليها ينذرونها سوء العاقبة إن هي صدَّت محمداً ﷺ عن البيت الحرام . وأخذ قريشاً كبرها وحمية الجاهلية : أن يقول الناسُ دخل محمد ﷺ عليهم مكة وهم كارهون .

وكانت نتيجة هذه الأنفة الجاهلية أن انصرف « الخلفاء » الذين استعانت بهم قريش عنها . فعاد عروة بن مسعود ومن معه من ثقيف إلى الطائف ، وانصرف الحليس بن علقمة الكناني ومن معه عن مكة إلى دورهم وبيوتهم غضابًا من مَنْعِ قومٍ أتوا يريدون اعتمار البيت من دخول الحرم . وهكذا انقلب على قريش أقرب من استعانت بهم إليها . وجعل الله تدمير مكرها في تدبيرها إياه . وكذلك عواقب الظالمين لا تكون إلا خسرانًا وخيبةً !

وقد أبى الله ـ منذ البدء ـ إلا أن ينصر نبيه ، فقد انصاعت قريش في خاتمة المطاف ، بعد خسارتها هؤلاء الحلفاء ، إلى اقتراح النبي ﷺ : أن تكون بينها وبينه مدة (هدنة) يأمن الفريقان فيها. فكانت هذه المدة هي الفتح المبين للنبي ﷺ ، وبدء التمكين لدينه في أرض العرب كلها .

* * *

(٩)

رسل رسول الله ..

كان رسول الله ، ﷺ ، أسبق من قريش إلى إرسال رسله إلى مكة . فإنه لما وافى الحديبية بعث إلى قريش خراش بن أمية ، على جمل لرسول الله كان يسمَّى «الثعلب». وأمره أن يبلغ أشراف مكة أنه لم يأت لقتال ، وإنما جاء معتمراً ، وساق الهدي ، وأنه سيعود بعد عمرته إلى المدينة . وكان غضب قريش وغيظها قد بلغ مداه لما علموا من عزم النبي ﷺ على دخول مكة ، فعقر عكرمة بن أبي جهل ذلك الجمل ، وأرادت قريش قتل خراش ابن أمية ، فمنعته منها الأحابيش (قبائل من خزاعة ، وبني الهون ابن خزيمة بن مدركة ، وبني عبد مناة بن كنانة ، وبني المصطلق كانوا حلفاء لقريش ، استنهضتهم لحرب رسول الله ﷺ ومنعه من دخول البيت عام الحديبية)[1] فخلوا سبيله فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بما لقي

(١) البخاري ، الحديث رقم ٤١٧٨ و٤١٧٩، وهو جزء من حديث المسور ابن مخرمة ومروان بن الحكم السابق تخريجه .

من قريش . وأراد النبي ﷺ أن يرسل واحداً من كبار أصحابه إلى مكة ، ليذهب فزع قريش من قدوم المسلمين عليهم ؛ فدعا عمر بن الخطاب ليكلفه بذلك ، فقال له عمر: « يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وقد عرفت قريش عداوتي لها ، وليس بها من بني عَدِيٍّ أحد يمنعني ، وإن أحببت يا رسول الله دخلت عليهم » . فلم يقل له رسول الله ﷺ شيئاً !

فقال عمر: « يا رسول الله ، ولكني أدلُّكَ على رجل أعزَّ مني بمكة ، وأكثر عشيرةً وأمنع ، وأنه يبلغ لك ما أردت: عثمان بن عفان » . فدعا الرسول ﷺ عثمان بن عفان فقال له: « اذهب إلى قريش وأخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عُمَّاراً ، وادعهم إلى الإسلام »[1]. وأمره أن يأتي بمكة رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى سيظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان[2]. فانطلق عثمان إلى مكة حاملاً رسالة النبي ﷺ إلى أهلها .

(١) فتح الباري، كتاب الشروط، جـ ٥ ص ٣٢٩.

(٢) وتأمل قوة يقين رسول الله ﷺ وثقته بوعد ربه التي جعلته يبشر المستضعفين بمكة بفتحها واستعلاء الإيمان فيها وإظهار الله دينه على الشرك وأهله، كل ذلك وهو ﷺ وأصحابه ممنوعون من دخول مكة ! !

وليتأمل من أحب موقف عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وهو المعروف بقوته وشجاعته وصدق بأسه في الحق ، وكيف خاف هنا على نفسه التهلكة فلم يمنعه شيء أن يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويعتذر به عن قبول المهمة التي كلفه بها. وليتأمل مع ذلك ، موقف عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، المشهور برقته ولين جانبه كيف لم يتردد لحظة في تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ؛ وليعلم من ذلك أن لكل حال ما يناسبها من المواقف ، وأن الرجال المصطفين لصحبة الرسل ينزلون كل قول في موضعه ويتصرفون في كل حالٍ بما يليق بها ، وأنهم ليسوا قوالب جامدة وإنما هم قلوبٌ ذكية واعية ، استحق أصحابها أن يكونوا ذلك الجيل القرآني الفريد الذي رباه النبي ﷺ .

ذهب عثمان برسالة النبي ﷺ إلى قريش ، فأبت قريش أن يدخل الرسول ﷺ وأصحابه مكة من عامهم ذاك . وقالت لعثمان « قد سمعنا ما تقول ، ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عَنْوَةً أبداً ، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا »! وطاف عثمان رضي الله عنه بأشراف مكة - رجلاً رجلاً - فكان جوابهم إياه واحداً : أن محمداً لا يدخل علينا مكة هذا العام !

وأتى عثمان المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات ، فبشرهم ببشارة رسول الله لهم ، ففرحوا واطمئنوا ، وقالوا له « أقرئ رسول الله منا السلام ».

وكان من تعظيم عثمان ، رضي الله عنه ، لرسول الله ﷺ أنه لما فرغ من رسالته إلى قريش قالوا له : « إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ »! فقال عثمان لهم : « ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ ».

وقال بعض المسلمين وهم بالحديبية ، قبل أن يرجع عثمان ، خلص عثمان من بيننا إلى البيت فطاف به ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ». قالوا : « وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه ؟» قال : « ذلك ظني به! ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف !».

فلما رجع عثمان إلى رسول الله ﷺ قال له المسلمون : « اشتفيت من البيت يا أبا عبد الله »؟ (يريدون طفت به) فقال لهم عثمان : « بئس ما ظننتم بي ! فوالذي نفسي بيده لو مكثت مقيماً بها سنةً ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله . ولقد دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت !» قالوا : « كان رسول الله ﷺ أعلمنا وأحسننا ظناً »[1]!

* * *

(١) كنز العمال، من مراسيل عروة، الحديث رقم ٣٠١٥٢. ولم يذكره صديقنا الدكتور محمد مصطفى الأعظمي فيما جمعه من رواية أبي الأسود عن عروة لمغازي رسول الله ﷺ، ط مكتب التربية العربي لدول الخليج بالرياض ١٩٨١.

(١٠)

غدرٌ.. ونصرٌ.. وعَفْو!!

بقيت هواجس السوء تراود قريشاً طول إقامة رسول الله ﷺ وأصحابه في الحديبية ، فعلى الرغم من توالي الرسل بينهم وبين المسلمين ، وعلى الرغم من تأكيد رسول الله ﷺ أنهم لم يأتوا لقتال وإنما جاءوا معتمرين ، فإن حقد قريش على المسلمين ، وَوَجْدَها لِما أصابها في حروبها معهم دفعها إلى محاولة الغدر بالنبي ﷺ وأصحابه .

وكان من أمرها في ذلك أن أرسلت خمسين رجلاً يقودهم مِكْرَزُ بن حَفْصٍ بن الأخْيَف ، لعلهم أن يصيبوا من المسلمين غِرَّةً أو يأسروا منهم أحداً. وكان حرس رسول الله ليلتئذٍ محمد ابن مَسْلَمَة ، رضي الله عنه ، فأخذهم محمد بن مسلمة وأتى بهم رسول الله ﷺ ، فأمر النبي بحبسهم. وكان قائدهم مكرز بن حفص قد فرَّ وعاد إلى قريش فأخبرهم بهزيمته وأصحابه وبأسر المسلمين لهم جميعاً !

وحرَّض رجالٌ قريشاً على محاولة تخليص أسراهم من أيدي المسلمين فخرج جمع منهم إلى الحديبية ، وتراموا هم

والمسلمون بالنبل والحجارة ، فقتلوا رجلاً من المسلمين واحداً يقال له ابن زُنَيْم ، وأسر المسلمون من المشركين اثني عشر رجلاً ، وفرَّ الباقون هاربين !

وفي أثناء المفاوضة بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو - وسيأتي خبرها - طلع على المسلمين ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوه المسلمين ، فدعا عليهم رسول الله ، ﷺ ، فأخذ الله بسمعهم وأبصارهم ، فقام المسلمون إليهم ، فأسروهم جميعاً. وروى الإمامان مسلم وأحمد بن حنبل وغيرهما عن أنس - رضي الله عنه - أنه لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ ، وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدون غِرَّةَ رسول الله ، ﷺ ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذوا ؛ فعفا ﷺ عنهم[1].

وروى الإمامان مسلم وأحمد وغيرهما ، عن سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه قال : « إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح ، فلما اصطلحنا واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرة فاضطجعت في ظلها (قوله: اصطلحنا يعني تبين أن الصلح واقع ، لأنه لم يكن قد تم صلح بعد) فأتاني أربعة من مشركي

---

(١) في مسلم الحديث رقم ١٨٠٨، وفي مسند أحمد برقم ١٢٢٥٢.

أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، (أي يذكرونه بسوء) فأُبْغِضُهم ، وتحولت إلى شجرة أخرى ، فعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي : يا للمهاجرين ، قتل ابن زُنَيْم[1] ! فاخترطت سيفي (أخرجته من غِمْده وجعلته في يدي) فاشتددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم وجعلته في يدي ، ثم قلت : والذي كرَّم وجه محمد ﷺ ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عينيه ! ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ ، وجاء عمي عامر برجل من المشركين يقوده ، حتى وقفناه على رسول الله ﷺ ، فقال :« دعوهم يكون لهم بدء الفجور وَثَنَاهُ »(أي دعوا لهم الإثم والعدوان أوَّلُه وثانيه ، وخلّوا لنا الوفاء والعفو والصفح) . فعفا عنهم رسول الله ﷺ[2].

وفي بعض روايات حديث الثلاثين ثماباً الذَّين أرادوا مهاجمة المسلمين في أثناء المفاوضات بين النبي ﷺ ، وبين

---

(١) ذكره ابن حجر في الإصابة جـ١ ص٥٣٣ الترجمة رقم ٢٨١٩، فقال : « زنيم غير منسوب، قال الطبري له صحبة، وذكر قتل المشركين إياه يوم الحديبية وأشار إلى أن الذي في مسلم ١٨٠٧من حديث سلمة بن الأكوع ابن زنيم». وهو كذلك في المسند ١٦٦٣٣.

(٢) رواه مسلم عن سلمة بن الأكوع برقم ١٨٠٧؛ ورواه أحمد عنه برقم ١٦٦٣٣ بلفظ فيه اختلاف يسير.

سهيل بن عمرو أن رسول الله ﷺ سألهم : « هل جئتم في عهد أحد ؟ وهل جعل لكم أحد أماناً؟ ». فقالوا : « لا ». فخلّى رسول الله ﷺ سبيلهم ! [1]

ولما أسر المسلمون اثني عشر فارساً من القرشيين الذين قُتِلَ في أثناء مواجهتهم ابن زُنَيْم ، قال لهم رسول الله ﷺ ، « هل لكم عهد أو ذمة »؟[2]

فهذه أربع محاولات من المشركين ليغدروا بالمسلمين ، أو يصيبوا منهم غِرَّةً ، ردهم الله في كل واحدة منها خاسرين ، وأسر المسلمون منهم مائة واثنين وسبعين رجلاً ، بل مائة وسبعة وسبعين رجلاً (بإضافة الأربعة الذين أسرهم سلمة ابن الأكوع ، والرجل الذي أسره عمه عامر ، رضي الله عنهما).

ورسول الله ﷺ عند كل نصر للمسلمين على من أرادوا بهم الغدر والخيانة ، يأمر بالعفو عن المشركين ، ويسألهم عن ذمتهم وعهدهم ، وهم يقولون ألاّ ذمة لهم ولا عهد ، أي إن رسول الله وأصحابه لا لوم عليهم ولا تثريب إن هم اعتبروهم أسرى ، أو قتلوهم بغدرهم ، فالقوم كانوا محاربين للقتال

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مغفل المزني، الحديث رقم١٦٩٢٣.
(٢) حديث عبد الله بن مغفل، السابق .

أتوا. ولكن خلق الإسلام، الذي بعث رسول الله ﷺ ليتمم محاسنه، يدعوه إلى العفو عنهم، وإلى أن يخلِّيَ سبيلهم وسط دهشة المسلمين وتعجبهم من صنيع نبيّهم، الذي آلى على نفسه وأصحابه أنهم لم يأتوا لقتال، وإنما قصدوا البيت الحرام وحده.

وفي هذه الأثناء بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان وعشرة من المسلمين كانوا قد دخلوا في أمانه[1] - بإذن رسول الله ﷺ - مَكَّةَ قد قُتِلوا. فغضب لذلك رسول الله ﷺ، وقال: «لا نَبْرحُ حتى نناجز القوم»[2]، ودعا أصحابه إلى البيعة.

* * *

(١) أي أمان عثمان الذي دخل به مكة وهو الأمان الذي أعطاه إياه أبان ابن سعيد بن العاص كما في مغازي الواقدي، جـ٢ ص٦٠١.

(٢) ابن هشام، السيرة، بهامش الروض الأنف للسهيلي، ط الجمالية بمصر ١٩١٤، جـ٢ ص ٢٢٩. وقد ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري، جـ٧ ص٤٤٨؛ وأخرجه الطبري عن عبد الله بن أبي بكر، جـ٢٦ ص٥٤.

(١١)

البيعة ..

عفا رسول الله ﷺ عن الأسرى من المشركين ، لكنه لم يطلق سراحهم ليعودوا إلى قومهم ، بل أبقاهم مع المسلمين حتى يرجع عثمان ومن معه من المسلمين من مكة. فأرسلت مكة سهيل بن عمرو وحُويْطب بن عبد العُزَّى ومِكْرَز ابن حَفْص إلى النبي ﷺ ، فلما رأى سهيلاً قال لأصحابه: « سهل أمركم ».

قال سهيل لرسول الله: « إن الذي كان من القتال لم نعلم به إلا حين بلغنا وكنا له كارهين ، ولم يكن عن رأي ذوي الرأي فينا ، ولكنه كان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة ، والذين أسرت آخر مرة » (أي الأسرى أجمعين). قال رسول الله ﷺ: « إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي » (أي عثمان ومن معه). قال سهيل : « أنصفتنا... » وبينما هم في ذلك الحديث أتى آتٍ إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن عثمان ومن معه قد قتلوا بمكة . فعندئذٍ دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة .

جلس النبي ﷺ تحت شجرة خضراء ثم قال: « إن الله أمرني بالبيعة » فأقبل الناس يبايعونه حتى تداكو (تزاحموا زحاماً شديداً) ، ولبس الناس سلاحهم ، وهو يومئذٍ قليل ، لما كان من كره رسول الله ﷺ ، حمل السلاح عند خروجهم من المدينة وهم يريدون العمرة ، كما مر بنا ، وقامت أم عمارة الأنصارية إلى عمود كانت تستظل به فجعلته بيدها ، استعداداً للمعركة ، وشدَّت سكيناً في وسطها !

لما نادى منادي رسول الله ﷺ:« أيها الناس البَيعةَ البَيعةَ ، نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله » خرج الناس مسرعين إلى حيث كان رسول الله ﷺ ، في منازل بني مازن بن النجار ، فكان أسبق الناس إليه أبو سنان الأسدي فقال لرسول الله : ابسط يدك أبايعك! فقال ﷺ ، « علام تبايعني »؟ قال : « على ما في نفسك! » فقال النبي : « وما في نفسي »؟ قال : « أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل ! » فبايعه، وبايعه الناس على بيعة أبي سنان ! [1] وكان سلمة بن الأكوع فيمن بايع أول الناس ، حتى إذا كان في وسط الناس (أي وسط توافدهم على البيعة) ناداه رسول الله ﷺ : « بايع يا سَلَمة » قال : قلت : قد بايعتك يا رسول الله في أولِّ الناس ،

---

(١) كنز العمال رقم ١٥٣٥ ؛ والصالحي، السابق، جـ٥ ص ٨٣؛ والروض الأنف للسهيلي جـ٢ ص٢٣٥.

قال : « وأيضاً » (يعني بايع الآن أيضاً) ، قال سَلَمَةُ : ورآني رسول الله عَزِلاً (أي لا سلاح معه) فأعطاني حَجَفَةً - أو دَرَقَةً - (وهي ترس صغير من جلد) ، فلما كان في آخر الناس قال: « ألا تبايعني يا سلمة »؟ قال : يا رسول الله قد بايعتك في أول الناس ، وفي وسط الناس ، قال « وأيضاً » فبايعته الثالثة. وقال رسول الله له « أين حَجَفَتُكَ التي أعطيتك؟ » قال سلمة : لقيني عمي عامر عزلاً فأعطيته إياها ، فضحك رسول الله ﷺ ، وقال « إنك كالذي قال الأول: اللهم ابغني حبيباً هو أحب إليَّ من نفسي » ! ![1]

وبايع الناس يومئذٍ رسول الله على ألا يفِرُّوا ، أو على الموت ، والمعنى واحد ، وهي البيعة التي رضي الله عن أصحابها : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح:١٨) . وهي البيعة التي نسبها ربنا تبارك اسمه إلى نفسه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح:١٠) . ولذلك سميت « بيعة الرضوان ».

---

(١) سبق تخريجه من حديث سلمة بن الأكوع . والمراد أن سلمة فضَّل عمه على نفسه فضرب له رسول الله ﷺ هذا المثل الظريف.

وبايع عبد الله بن عمر مرتين ، فقد كان أبوه أرسله ليحضر له فرساً له كان عند رجل من الأنصار ، فرأى عبد الله ابن عمر الناس محدقين برسول الله يبايعونه فبايع ، ثم أتى بالفرس إلى أبيه وأخبره بأمر البيعة ، فخرج ليبايع ، وعبد الله معه ، فبايع مع أبيه ، فكان له يوم بيعة الرضوان ، بيعتان .

وضرب رسول الله ﷺ إحدى يديه بالأخرى وهو يقول : «اللهم إن عثمان في حاجتك ، وحاجة رسولك»[(١)] ، فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم ، هكذا قال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما .

وكان الذين بايعوا يومئذٍ نحو خمس عشرة مائة من المهاجرين والأنصار. فقال فيهم رسول الله ﷺ ، «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[(٢)]. وقال لهم يومئذٍ: «أنتم خير أهل الأرض»[(٣)].

---

(١) كنز العمال من مسند سلمة بن الأكوع الحديث رقم ٣٦١٩٤؛ وهو في المعجم الكبير للطبراني برقم ٦٢٦٣ من طبعة وزارة الأوقاف العراقية، بتحقيق حمدي السلفي، جـ٧ ص ٢٣، وذكره الصالحي (ص٨٣)، من رواية البيهقي عن أنس؛ ومن رواية ابن إسحاق عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) حديث جابر بن عبد الله، وهو في الترمذي برقم ٣٨٦٠، وفي أحمد برقم ١٤٨٣٧، وفي سنن أبي داود برقم ٤٦٥٣، وهو في مسلم بلفظ مختلف برقم ٢٤٩٦.

(٣) متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله البخاري برقم ٤١٥٤، ومسلم برقم ١٨٥٦.

وبايع يومئذ الرجال والنساء جميعًا ، فقد ذكر الرواة في تراجم من خرجن مع رسول الله ﷺ شهودهن بيعة الرضوان[1].

وتخلف يوم بيعة الرضوان ، ممّن كانوا مع رسول الله ﷺ ، رجل واحد . وفي الرواية عن تخلفه ما يدل على خوفه من إلزام نفسه بما ألزم المبايعون به أنفسهم من البيعة على عدم الفرار ، أو على الموت ؛ وسأذكر قصته عما قليل .

فلما رأى سهيل بن عمرو ومن معه من المشركين سرعة الناس إلى البيعة ، وتشميرهم إلى الحرب ، اشتد رعبهم وفزعهم ، وأسرعوا إلى قريش يخبرونهم بما كان ، وحينئذٍ لم تَرَ قريشٌ أفضل من أن تقبل دعوة النبي ﷺ إلى عقد معاهدة إلى مدة محدودة يأمن الفريقان فيها. وذلك هو ما كان من أمر صلح الحديبية .

* * *

(١) راجع مثلا ترجمة أم عمارة الأنصارية، نَسيبة بنت كعب في أُسد الغابة لابن الأثير الترجمة رقم ٧٥٤٣؛ وفي الإصابة لابن حجر الترجمة رقم ١٤٢٦.

(١٢)
اختفاء الشجرة

ذكر القرآن الكريم الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الحديبية مثنيًا على المبايعين فيها ، فقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح:١٨) وهذه البيعة هي التي تعرف في المأثور الإسلامي باسم بيعة الرضوان .

وفي صحيح الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أنه بايع رسول الله ﷺ ، وعمر آخذ بيده تحت شجرة - وهي سمرة - كان النبي نازلا تحتها يستظل بها فبايعوه[١].

واختلف في هذه البيعة : هل كانت على ألا يفروا ، كما رواه مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ؛ أم كانت على الموت ، كما رواه البخاري وغيره عن سلمة بن الأكوع . والأمر في هذا الاختلاف يسير ، فإن عدم الفرار يعني الثبات حتى النصر أو الشهادة ، وهو نفسه معنى البيعة على الموت ،

---
(١) رواه مسلم، الحديث رقم ١٨٥٦.

إذ لا يقصد به أن كل مبايع سيموت حتمًا إنما المراد أن يكون من هؤلاء المبايعين من الصبر مع رسول الله والثبات حوله والقتال معه ـ إن كان قتال ـ ما تصدق به بيعتهم على عدم الفرار . وهذا لا يكون إلا بالصبر إلى أن يتم الظفر أو تنال الشهادة في سبيل الله . ويدل على صحة هذا الجمع بين الروايتين ما نقلناه في فصل (البيعة) عن بيعة أبي سنان الأسدي للنبي ﷺ ، وأنه بايعه على أن « يضرب بسيفه » بين يديه حتى ينصر الله نبيه أو يقتل أبو سنان . وقد روى عبد الله بن عمر وغيره ، أن الناس بايعوا رسول الله على بيعة أبي سنان .[1]

* * *

ولأن أصحاب النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، كانوا بشرا من البشر ولم يكونوا ملائكة أو أشباه الملائكة ، فقد حفظت لنا الرواية الصحيحة أن بعضهم لم يبايع ، بل فرَّ من البيعة واختبأ تحت بطن ناقته يستتر بها من الناس (!) فروى مسلم عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما [2]، أن جَدَّ بن قيس الأنصاري اختفى تحت بطن بعيره (!) وروى ابن اسحاق عن

(١) الصالحي ، جـ ٥ ص ٨٣ .

(٢) صحيح مسلم الحديث ١٨٥٦، واسم الصحابي يروى هكذا، ويروى (الجد) .

جابر أيضًا أنه قال عن الجدِّ بن قيس «فكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته، قد خبأ إليها، يستتر بها من الناس»[1] !

وليس في المروي عن هذه الواقعة عقاب، ولا عتاب، ولا لوم للجدِّ بن قيس الأنصاري بسبب تخلفه عن البيعة. نعم في سورة الفتح لوم وتقريع للذين تخلفوا عن رسول الله من الأعراب الذي دعاهم إلى الخروج معه للعمرة فأبوا، وقالوا: قالة سوءٍ عن الرسول ﷺ وأصحابه وهم بطون من بني بكر ومن مزينة ومن جهينة استنفرهم رسول الله ﷺ فسخروا منه، فأنزل الله تعالى فيهم قوله في سورة الفتح: ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا** ﴾ (الفتح: ١١).

فهؤلاء تخلفوا عن رسول الله لأنهم لم يثقوا بقدرة الله ـ تعالى اسمه ـ على نصرة نبيه، وظنوا ظن السوء، وأهلكوا أنفسهم بهذا الظن القبيح، فاستحقوا ذلك التقريع واللوم، كما يستحقهما كل من يصنع مثل صنيعهم إلى يوم القيامة.

والجدّ بين قيس لم يبايع فَرَقًا أو جبنًا، لكنه لم يكن يضمر ظن سوء بالله تعالى ولا برسوله ولا بالمؤمنين معه.

---

(١) سيرة ابن اسحق، بهامش الروض الأنف، جـ٢ ص ٢٢٩.

فشأن الأولين كشأن الذين يعيشون اليوم بيننا من المخذّلين والمثبطين الذين يقولون : متى تنتصرون على الصهاينة ؟

ومتى يكون لكم النصر على المحتلين الأمريكيين؟

أين قوتكم من سلاحهم ، وأين عددكم من عدتهم وعتادهم ؟

وهم يسخرون من المقاومة الفلسطينية ، ومن المقاومة الإسلامية اللبنانية ، ومن المقاومة العراقية الوطنية ، ومن المقاومة الأفغانية ، التي لم يسمعوا عنها ولا يعرفون عنها شيئًا ؛ وهم في النهاية يظنون بالله وبعباده المؤمنين ظن السَّوءِ، ويعتقدون أن العاقبة لا يمكن أن تكون لنا على عدونا ، ولا يعتقدون في مقتضى قول ربنا سبحانه ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:٧) .

وشأن الجدِّ بن قيس كشأنٍ كثير من الطيبين الصالحين الذين يشفقون على المجاهدين الذين يفدون الأوطان والأديان والمقدسات بأرواحهم ، وهم شبان وشابات في مقتبل الأعمار، وفي وقت الطمع في الحياة وملذاتها ، والأمل في التنعم بخيرات الدنيا قبل التطلع إلى نعيم الآخرة ، وهم مع هذا الإشفاق لا يجدون في أنفسهم القدرة على المقاومة ولو بالكلمة أو النفقة (!) ولكنهم يتمنون في قلوبهم للمجاهدين

النصر والظفر ، وأنت تراهم يبالغون في التأمين (قول: آمين) خلف الأئمة في الخطب والصلوات إذا دعوا بالنصر للمجاهدين(!) وهذا مبلغهم من القدرة ، وطاقتهم من العمل ، فهل يستحق هؤلاء لومًا أو تقريعًا ؟؟

بمثل هذا الشعور الطيب الصادق نجا الجدُّ بن قيس - والله أعلم - من اللوم والتقريع . وبمثل قول المخذلين والمثبطين استحق المخلفون من الأعراب ما ألحقه بهم القرآن الكريم من سوء ذكرٍ باقٍ في العالمين .

* * *

وقد عظَّم الناس - بعد رسول الله ﷺ - من شأن الشجرة التي بايعه تحتها أصحابه ، يوم الحديبية ، بيعة الرضوان . فروى البخاري وغيره عن طارق بن عبد الرحمن أنه كان في طريقه إلى الحج فمرَّ بقوم يصلون ، فقال لهم : « ما هذا؟ » (أي لماذا تصلون هنا) قالوا : « هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ ، بيعة الرضوان » .

قال طارق بن عبد الرحمن فأتيت سعيد بن المسَيَّب فأخبرته ، فقال سعيد : « حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، فلما خرجنا من العام المقبل (أي في عمرة القضاء التي أدوها بعد صلح الحديبية) نسيناها فلم نقدر عليها. فقال سعيد:إن أصحاب محمد لم يعلموها وعلمتموها

أنتم ، فأنتم أعلم »[1] ! ولما بلغ عمر بن الخطاب أن قومًا يأتون الشجرة التي بويع تحتها فيصلون عندها ، توعدَّهم ، ولكن يبدو أن وعيده لم يؤثر في رغبة الناس في طلب الخير بالصلاة حيث بويع النبي بيعة الرضوان ، فأمر بها عمر فقطعت ! وقال عبد الله بن عمر ، عندما اختلف بعض أصحاب النبي ، الذين كانوا معه في الحديبية ، في موضع الشجرة إن ذلك كان رحمة من الله !

وقد قال بعض رواة السيرة إن مقصود ابن عمر بهذه الجملة هو أن خفاء الشجرة كان رحمة لئلا يفتتن بها الناس ، وقيل إن معنى هذه الجملة أن الشجرة كانت موضع رحمة الله تعالى ورضوانه اللذين نزلا على المؤمنين عند البيعة .

وقد روى البخاري عن جابر بن عبد الله قوله « لو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة »[2] وقد كان ذلك بعد أن كبرت سنه وذهب بصره ، وهو يدل على أنه كان يعرفها بذاتها قبل أن يقطعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وعدم علم بعض الصحابة بمكانها لا يدل ـ قطعًا ـ على عدم علم الجميع به .

وقد علل العلماء قطع عمر للشجرة، كما عللوا خفاءها، على بعض أصحاب النبي من أهل البيعة أنفسهم ، بأن ذلك

(١) متفق عليه البخاري ، الحديث رقم ٤١٦٣، ومسلم رقم ١٨٥٩ .

(٢) متفق عليه : البخاري الحديث رقم ٤١٥٥؛ ومسلم رقم ١٨٥٦ .

كان لئلا يفتتن بها الجهال من عوام المسلمين ، بسبب ما وقع تحتها للنبي وأصحابه من الخير ، فيظنوا أن لها قوة وتأثيراً تنفع بهما وتضر ، وهو مالم يكن واقعًا قطعًا في زمن الصحابة والتابعين .

وقد اتخذ بعض التابعين مسجدًا بسيطًا في الموضع الذي كان متعارفًا عليه بينهم أنه موضع الشجرة ، وقد تهدَّمَ هذا المسجد وجُدِّد بناؤه مرات ، كان آخرها في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز - رحمه الله - على ما أخبرني به الأخ الجليل الشيخ أحمد زكي يماني ، وقال لي إن لدى موسوعة الحرمين الشريفين، التي يشرف عليها ويعمل لإصدارها قريبًا، صورة من الجوِّ لقواعد المسجد كما كانت في آخر بناء له قبل أن يُهْدَم ذلك البناء للسبب نفسه: خشية افتتان الناس به !

والفقه في هذه المسألة يدور على قاعدة « سد الذرائع ». فكل سبيل يخاف منها على العقيدة الصحيحة ، أو يخشى أن تفضي إلى اختراع عبادة لا أصل لها ، أو نحو ذلك ، فمن الواجب سَدُّها. ويوازن دائمًا - لزومًا - بين المصلحة التي تتحقق بترك الأمر على حاله ، وبين المفسدة التي يخشى من وقوعها ، على نحو ما فعل رسول الله ﷺ عندما ترك بيت الله الحرام على حاله ولم يُعِد بناءه على قواعد إبراهيم وعلَّل

ذلك بأن الناس حديثو عهد بالكفر ، أو بالجاهلية ، أو بشرك[1].

فإذا أردنا أن نطبق ذلك على مسألة مسجد الحديبية ، وعلى مسألة الشجرة التي أمر عمر بقطعها ، وجدنا أن عمر كان على أصل صحيح حين خشي - والناس قريبو عهد بشرك - أن تقدَّس الشجرة ، ويظن بها ما لا يجوز اعتقاده من النفع والضرر .

ولكن المسجد - عند المسلمين كافة - هو لله وحده. لا يعبد فيه إلا هو سبحانه . وليس ثمة خوف من أن يكون المسجد وسيلة إلى الشرك بالله أو عبادة الشجر أو الحجر معه. كيف والقرآن يتلى كل يوم فيكرر القارئون : ﴿ **وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا** ﴾ (الجن١٨) فلعله كان من الأولى ترك المسجد لا هدمه ، وفي توعية المسلمين وتثقيفهم ما يحول بينهم وبين المفسدة التي قد يخشى بعض الخائفين على إيمان الناس منها. والله تعالى أعلم .

* * *

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة، البخاري ١٥٨٣-١٥٨٦؛ ومسلم ١٣٣٣ والألفاظ الثلاثة فيهما؛ وقد جمع رواياته الألباني في الأحاديث الصحيحة رقم٤٣.

(١٣)

الصُّلْحُ الفَتْحُ..

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح: ١-٣).

يخبر ربنا - تعالى جَدُّه - في هذه الآيات عن صلح الحديبية ، ويسميه فتحاً مبيناً لأنه كان بعد أن ظهر رسول الله ﷺ ، وأصحابه على المشركين حتى سألوه الصلح، بعد أن كانوا يأبون ذلك ويستكبرون عنه . وكان هذا الصلح هو السبب في فتح مكة بعد قليل ودخول الناس في دين الله أفواجاً .

ولذلك روى البخاري عن أنسٍ في هذه الآية « الفتح صلح الحديبية »[١]. وروى عن البراء بن عازب أن الصحابة كانوا يعدون الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية [٢].

---

(١) البخاري عن أنس . الحديث رقم ٤١٧٢ و٤٨٣٤.

(٢) البخاري. الحديث رقم ٤١٥٠.

ومن أجمل ما قيل في ذلك قول الزهري: «لم يكن في الإسلام فتح قبل الحديبية هو أعظم منه ... فلما أمن الناس كلهم، كلم بعضهم بعضاً ... ولم يُكَلَّمْ أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا بادر بالدخول فيه. فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر». قال ابن هشام: «ويدل على ذلك أنه ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة [أو ألف وخمسمائة] ثم خرج بعد سنتين إلى الفتح في عشرة آلاف»[1].

فذل المشركون من حيث أرادوا العزة، وقُهروا من حيث أرادوا الغلبة!

فكيف عُقِد هذا الصلح الذي سماه القرآن الكريم فتحاً مبيناً؟

عاد سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ، في مهمة محددة هي أن يصالح المشركون المسلمين على أن يرجع المسلمون عن مكة عامهم ذاك، ويعودوا في العام الذي بعده فيعتمروا ويقيموا بمكة ثلاثة أيام ثم ينصرفوا من حيث أتوا. ولم تزل قريش تكرر لسهيل قولها القديم: «والله لا تتحدث العرب أن محمداً دخل علينا عَنْوة»!

---

(١) فتح الباري، جـ٧ ص٤٤١.

فأتى سهيل رسول الله ﷺ ، فجلس على ركبتيه مواجهاً رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأطال الكلام ، وارتفعت أصواتهما وانخفضت ، حتى قال عباد بن بشر - رضي الله عنه - لسهيل : « اخفض صوتك عند رسول الله » ، وجرى القول بين سهيل وبين رسول الله حتى اتفقا على أن تكون هدنة مدتها عشر سنين يأمن فيها الناس بعضهم بعضاً ؛ وأن يرجع رسول الله ﷺ هذا العام ثم يعود العام المقبل ، فتخلي قريش بينه وبين مكة ثلاثة أيام ؛ وألا يدخل مكة إلا بالسيوف في قُرُبها دون غيرها من السلاح ؛ وأنه من أتى محمداً بغير إذن وليه - وإن كان على دين محمد - رده محمد إلى وليه ؛ ومن أتى قريشاً ممن كان قد اتبع محمداً فإنها لا ترده إلى محمد ؛ وأن من أراد من العرب أن يدخل في عقد محمد وعهده (أي يحالفه) دخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل؛ فتواثبت خزاعة وقالوا : « نحن في عقد محمد وعهده » ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : « نحن في عقد قريش وعهدهم » !

فلما لم يبق إلا كتابة هذا الصلح - والمسلمون كارهون - وثب عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « يا رسول الله ألست نبيَّ الله حقاً؟ » قال : « بلى » . قال عمر : « ألسنا

على الحق وهم على الباطل؟» قال: «بلى». قال عمر: «أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟» قال: «بلى». قال عمر: «فعلام نعطي الدنيّة في ديننا؟ ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟» فقال رسول الله ﷺ: «إني عبد الله ورسوله، ولست أعصيه، ولن يضيعني وهو ناصري». أي إن الأمر فيما جرى الاتفاق عليه لم يكن من عند رسول الله ﷺ، وإنما كان وحياً يؤمر به النبي فينفذه. ولذلك لم يشاور أصحابه في هذا الشأن كله منذ خلأت القصواء - أو هكذا قالوا - إلى أن جرى الاتفاق بينه وبين سهيل بن عمرو. هذا وهو - ﷺ - الذي لم يكن أحد أكثر مشورة منه لأصحابه. فتبين من تركه المشاورة هنا أننا أمام وحي يوحى لا أمام رأي بشري تطلب له المشورة. ولم يقنع ذلك عمر بن الخطاب، فعاد يقول للرسول ﷺ، «أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف حقاً؟» قال: «بلى»، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قال: «لا»، قال: «فإنك آتيه ومطوِّف به».

فذهب عمر إلى أبي بكر فقال له مثل مقالته لرسول الله ﷺ، وهو متغيظ لا يصبر. فكان جواب أبي بكر كجواب النبي ﷺ سواء بسواء[1]. قال عمر عن نفسه: «والله ما شككت قط منذ

(١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، سبق تخريجه.

أسلمت إلا يومئذ» ، وجعل يرد على رسول الله الكلام ، فقال له أبو عبيدة بن الجّراح ﷺ ، ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ، يقول تعوَّذ بالله من الشيطان واتهم رأيك ؛ قال عمر : «فجعلت أتعوذ من الشيطان حياءً فما أصابني شيء قط مثل ذلك اليوم».

ثم كان عمر إذا حكى هذه الواقعة يقول : «اتهموا الرأي على الدين (أي لا تقولوا برأيكم في دينكم) ، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ ، برأيي ، وما أَلَوْتُ الحق» (أي لم أكن مقَصِّراً في طلبه) ، قال : فرضي رسول الله ولم أرض حتى قال يا عمر : «تراني رضيت وتأبى» قال عمر: «فما زلت أتَصَدَّقُ وأصوم وأصلي وأعتق ، من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رَجَوْتُ أن يكون خيراً» (أي حتى غلب على ظني أنني كفرت عن ذاك الصنيع) ! [1]

رحم الله عمر. لقد كان في الحق جريئاً ، وفي الرواية عن نفسه ، فيما أصاب وأخطأ ، ناصحاً أميناً ، فرضي الله عنه وأرضاه كما نصح لله ورسوله ودينه وأمته .

* * *

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، السابق ، ص ٨٧ .

(١٤)

وُضِعَ الكتاب . .

والكتاب الذي أعنيه هنا هو وثيقة صلح الحديبية التي كتبت بين المسلمين وبين قريش. وهي معاهدة بين القوتين الكبريين يومئذ في جزيرة العرب ، وإن شئت قلت بين الدولة الإسلامية بقيادة النبي ﷺ ، وبين القوة المناوئة لتلك الدولة : قريش ومن والاها .

كان الاتفاق قد تم بين النبي وبين سهيل بن عمرو بعد مفاوضة شاقة ، ارتفعت فيها الأصوات ، واسْتُغْضِبَ في بعض مراحلها صحابة كبار ، ثم استوى الأمر بعد أن أعلن رسول الله ﷺ ، لأصحابه أنه يصدر فيما يفعل عن وحي السماء « إنِّي عبد الله ورسوله ، ولست أعصيه ولن يضيعني ». ولكن هذه المشقة في المفاوضة لم تكن شيئاً مذكوراً إذا قيست بما لقيه المسلمون من العنت عندما أخذ النبي ﷺ يملي نص الكتاب على كاتبه ، يومئذ ، عليّ بن أبي طالب ، وسهيل بن عمرو يعترض !

قال رسول الله ﷺ ، لعليّ بن أبي طالب : « اكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم ».

قال سهيل بن عمرو : أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدري ما هو(!) ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب . اكتب في قضيتنا ما نعرف . (القضية هنا هي كتاب الصلح).

وللقارئ أن يتذكر هنا قول الله - تبارك اسمه - عن المشركين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ (الفرقان : ٦٠) .

قال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال النبي ﷺ لعليٍّ : « اكتب باسمك اللهم » !

ثم استطرد النبي يملي : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ».

فقال سهيل بن عمرو : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، اكتب في قضيتنا ما نعرف ، اكتب محمد بن عبد الله .

فقال النبي ﷺ ، لعليٍّ : « امحه » !

فقال علي : ما أنا بالذي أمحاه ، وفي رواية « أمحاك » ، وفي رواية أن عليا جعل يتلكأ ، وأبى أن يكتب إلا : محمد رسول الله. ولم يكن ذلك عصياناً من عليٍّ لأمر رسول الله ﷺ، وإنما كان من باب الأدب الواجب ، أو المستحب ، مع النبي ﷺ . وروى بعض كُتَّاب السيرة أن أسيد بن الحضير وسعد بن عبادة، رضي الله عنهما ، أخذا بيد عليٍّ ومنعاه أن يكتب إلا : « محمد رسول الله » قالا : وإلا فالسيف بيننا وبينهم ؛ وارتفعت أصوات الصحابة ، وشقَّ عليهم ما يطلبه سهيل من محو صفة النبوة أو الرسالة ، وغضبوا غضباً شديداً ، فجعل رسول الله ﷺ ، يخفِّضُهم ، ويومئ إليهم : « اسكتوا ».

ثم قال لعليٍّ : أرنيه (أي الكلام) ، فأراه إياه ، فمحاه رسول الله ﷺ بنفسه ، وقال: اكتب « محمد بن عبد الله ».

قال الزهري : وكان ذلك كله لما قاله النبي ﷺ : « والذي نفس محمد بيده لا يسألوني خطة يريدون بها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ». وفي رواية (خطة يعظمون بها حرمات الله)[1].

---

(١) سبق تخريجه.

فلما بلغ الكتاب شرط أن من أتى مسلماً من المشركين بغير إذن وليه رده المسلمون إلى وليه ، وأن من أتى المشركين ممن كان مسلماً لم يرده المشركون إلى المسلمين ، قال المسلمون ، وهم غضاب ، « سبحان الله : أيكتب هذا ؟ كيف يردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً » ؟

قال رسول الله ﷺ ، « نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم إلينا سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً »[1]. وصدق رسول الله ﷺ . فإن أحداً من المسلمين لم يرتد عن دينه ويذهب إلى المشركين ، وقد جعل الله ألف فرج لمن جاء من المسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فرده إمضاءً للعهد الذي كان ذلك الكتاب شاهداً عليه .

كان أول من جاء ، ولما تتم كتابة المعاهدة بعد ، هو أبو جَنْدَل عبد الله بن سهيل بن عمرو ، كان أبوه قد سجنه لما علم بإسلامه ، فهرب من سجنه واجتاز الجبال حتى أتى رسول الله ﷺ ، بالحديبية . فرحب به المسلمون ، وهنأوه بخروجه من أسر أبيه ، وقام إليه أبوه يضربه بغصن شوك ،

---

(١) رواه مسلم عن أنس، رقم ١٧٨٣؛ ومحمد بن يوسف الصالحي الشامي، السابق، ص ٨٩ .

وقال: « يا محمد ، هذا أول ما أقاضيك عليه »، قال النبي ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد »؛ قال سهيل : « إذا لا أصالحك على شيء أبداً ».

قال النبيُ ﷺ : « فأجزه لي » (يعني اتركه لأجلي) ؛ قال سهيل : « ما أنا بمجيزه لك » ! قال النبي : « بلى فافعل » قال سهيل : « ما أنا بفاعل » !

وجعل أبو جَنْدل يستغيث بالمسلمين ألا يردوه إلى المشركين لما كان لقيه منهم من الأذى والعذاب ، فرفع رسول الله ﷺ صوته وقال: « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا مع القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً ، وإنا لن نغدر بهم »[1].

وأخذ عمر بن الخطاب يمشي إلى جنب أبي جَنْدل ، ويقول له: « اصبر واحتسب ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب » ، وجعل عمر يدني قائم السيف من يد أبي جندل وقال عمر : « رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه فضَنَّ الرجل بأبيه »!

---

(١) رواه أحمد ، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، رقم١٩١١٧.

وزاد أمر أبي جندل المسلمين همّاً على ما كان بهم مما وقع عند كتابة الصلح بين الطرفين . ولكن رسول الله ﷺ ، مضى لما أمره به ربه - سبحانه - من الصلح ، فتمت كتابة الكتاب ، وأمر النبي ﷺ محمد بن مَسْلَمة أن ينسخ منه نسخة لسهيل بن عمرو ، واحتفظ المسلمون بالأصل الذي كتبه علي بن أبي طالب رضي الله عنه [1].

وشهد على الكتاب نفر من المسلمين ونفر من المشركين ، فكان ممن شهد من المسلمين أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو (أبو جندل) وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة ، رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

وقد جمع العلامة الدكتور محمد حميد الله الحيدرآبادي - رحمه الله - نص كتاب الصلح فأورده على النحو الآتي :

« ١- باسمك اللهم .

٢- هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ ابن عمرو .

---

(١) فتح الباري، جـ ٥ ص ٣٤٣.

٣- واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٤- على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجًّا أو معتمرًا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام يبتغي من فضل الله فهو آمنٌ على دمه وماله.[1]

٥- على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردُّه عليه .[2]

٦- وأن بيننا عَيْبَةً مكفوفة[3]، وإنه لا إسلال ولا إغلال .[4]

٧- وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دَخَلَه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل

---

(١) أورد حميد الله هذه الفقرة بين معقوفتين هكذا [ ].

(٢) في صحيح البخاري وغيره جاء هذا الشرط هكذا :«وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون : « سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟» (البخاري ، ٢٧٣١ و٢٧٣٢).

(٣) عيبة مكفوفة : العيْبَةُ موضع سرِّ الرجل، والمراد هنا أنه ليس في صدور الطرفين غل ولا غدر بل الوفاء بهذا العهد والالتزام به.

(٤) أي لا سرقة ولا خيانة، والمقصود أن يأمن بعضهم بعضًا مدة الصلح على أنفسهم وأموالهم.

فيه[1]. ـ فتواثبت خزاعة فقالوا : « نحن في عقد محمد وعهده » وتواثبت بنو بكر فقالوا : « نحن في عقد قريش وعهدهم ».

٨- وأنت ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا ، معك سلاح الراكب : السيوف في القُرُب ، ولا تدخلها بغيرها .

٩- وعلى أن هذا الهدي حيث ما جئناه ومحلّه فلا تُقْدِمْهُ علينا[2].

١٠- ... أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين: أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة. ومكرز بن حفص وحويطب ابن عبد العزَّىٰ .

---

(١) أي من أحب أن يكون حليفًا للمسلمين في هذا الصلح فعل والتزم بشروطه التي عليهم والتي لهم؛ ومن أحب أن يكون حليفًا للمشركين فله ذلك بالشروط نفسها .

(٢) يعني لا تُدْخِل ما معك من الإبل، وغيرها، المهداة إلى البيت الحرام، إلى مكة لنحرها، ولكن اذبحها حيث أنت بالحديبية؛ أورد حميد الله هذه الفقرة بين معقوفتين هكذا [ ].

وعلي بن أبي طالب وكتب .»[1].

وبكتابة الكتاب مضى الفتح المبين إلى وجهته المحتومة بإذن الله .

* * *

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٣، دار الإرشاد بيروت ١٩٦٩، ص ٥٨، الوثيقة رقم ١١؛ وراجع تعليقاته على اختلاف ألفاظ الروايات في الصفحات ٥٩-٦٣. وقد وقف حميد الله في ذكر الأسماء عند اسم مكرز بن حفص بن الأخيف ثم وضع نقاطاً داخل قوسى هكذا (و . . . ؟ من المشركين) وفي الحاشية نقل فيمن شهد على الكتاب من المشركين اسم حويطب بن عبد العزّى عن أنساب الأشراف للبلاذري وعن إمتاع الأسماع للمقريزي . وهو فى إمتاع الأسماع (ط . محمود شاكر) ص ٢٩٧ . ونقل حميد الله ذلك ، أيضا عن الجاحظ في الرسالة العثمانية . والنص الذي أورده حميد الله مأخوذ من أكثر من ستة عشر مصدراً .

(١٥)
معاهدة شارعة

عندما قدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة واستقر بها أمر بوثيقة المدينة فكتبت بينه وبين المهاجرين والأنصار من جهة، وبين أهل المدينة ومن كان بجوارها من مشركي العرب ومن اليهود من جهة ثانية . وقد سمِّيتُ هذه الوثيقة - وسماها كثير من الباحثين - «دستور المدينة». وقلت في شأنها قديمًا إنها «أول وثيقة في التاريخ تقرر مبدأ جواز الانضمام إلى المعاهدات بعد توقيعها . ذلك المبدأ الذي أصبح من مُسلمات قواعد المعاهدات الدولية في العصر الحديث»[١].

وعنيتُ بذلك ما يعرف ، في فقه القانون الدولي المعاصر ، باسم «المعاهدات الشارعة» ، وهي المعاهدات التي تسمح نصوصها ، أو قواعد المنظمات الدولية التي تصدرها ، بأن ينضم إليها من يشاء من الدول بعد صدورها .

---

(١) محمد سليم العوَّا ، في النظام السياسي للدولة الإسلامية ، المصدر السالف ذكره ، ص ٥٨.

وقد نصت الوثيقة المدنية (دستور المدينة) على ذلك في مادتها الأولى وفي مادتها السادسة عشرة.[1]

* * *

لما أخبرت قريش عيونها بما كان من أمر بيعة الرضوان، ومسارعة أصحاب النبي ﷺ إليها، واستعدادهم للموت بين يدَيْ نبيهم، قال أهل الرأي منهم: إن الخير في أن نصالح محمدًا، على أن ينصرف عنا هذا العام ولا يدخل البيت ولا يطوَّف به، حتى يعلم من سمع بمسيره من العرب أنا قد صددناه (يريدون إثبات قوتهم ونفوذهم في الجزيرة العربية كلها !).

وأرسلت قريش لذلك سهيل بن عمرو، وبعد المفاوضات التي يصفها بالتفصيل رواة السيرة النبوية، انتهى الأمر إلى كتابة صلح الحديبية الذي تضمنت نصوصه التي ذكرتها آنفًا[2] أن: «من أحب أن يدخل في عَقْدِ محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه».

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٩.

(٢) انظر فصل: (وضع الكتاب).

وهذا الشرط الأخير هو الذي جعل صلح الحديبية «معاهدة شارعة» ثانية ، بعد دستور المدينة. وقد دخلت في عهد النبي ﷺ قبيلة خزاعة ، ودخلت في عهد قريش بنو بكر[1].

والمتتبع لقصة هذه المعاهدة يرى كيف كانت الأمور تدار بين رسول الله ﷺ ، وبين قريش ورسلها ، في وضوح كامل ، وعلى مرأى ومسمع من الصحابة أجمعين فلم يقل رسول الله لأحد من أصحابه إنه يريد أن يخلو برسول من رسل قريش: لا عروة بن مسعود الثقفي ، ولا بُدَيْل بن ورقاء ؛ ولا الحُليس بن علقمة الكناني ، ولا مِكْرَز بن حفص ، ولا سهيل بن عمرو. فلم تعقد جلسة مغلقة بين النبي وبين أحد من هؤلاء جمعيًا ، بل جرى الكلام كله بين رسول الله ﷺ وبين هؤلاء الرسل من قريش علانية على مشهد من الصحابة ومرأى منهم .

---

(١) نقضت بنو بكر عهدها بعد سنتين ، وكان ذلك سبب فتح مكة. راجع: ابن حزم، جوامع السيرة، ط إحسان عباس وناصر الدين الأسد، دار المعارف بالقاهرة د.ت، ص ٢٢٤؛ وابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، ط وزارة الأوقاف المصرية ١٩٦١ ص ٢٢٤؛ وابن هشام، السيرة مع الروض الأنف، ط الجمالية بمصر ١٩١٤ جـ٢ ص ٢٦٣؛ والمقريزي، إمتاع الأسماع، ط شاكر ص ٣٥٧. وحديث فتح مكة في البخاري، ٤٢٧٤ — ٤٢٧٦؛ وفي مسلم، ١٧٨٠-١٧٨٢.

وفي المفاوضة بين رسول الله ﷺ وبين سهيل بين عمرو درسٌ للحكام وولاة الأمور في كيفية مراعاة حق الأمة في المعلومات ، وحفظ كرامتها بعدم إخفاء شيء مما يجري بين هؤلاء وبين أعدائها من كلام في الشأن العام ، أو مفاوضة في التنازل عن بعض الحقوق لمصلحة يراها أولو الأمر؛ ودرس في حق الأمة في الاعتراض والمناقشة على ما يقبله الحكام أو يقترحونه في أثناء ذلك من شروط أو قيود .

لقد جرت مفاوضات رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو أمام من حضر من المسلمين ، وشارك في الكلام مناقشة وردًّا واعتراضًا من شاء أن يفعل ذلك ، ولم يخف رسول الله ﷺ عن أصحابه شيئًا مما طلبه المشركون ، ولم يغضب من مناقشتهم إياه .

ونقلت الرواية الصحيحة اعتراض المسلمين على شروط الصلح « فكره المسلمون هذه الشروط وامتعضوا منها »[1].
ونقلت الرواية الصحيحة مراجعة عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ وردَّه عليه ، وانتقاله إلى أبي بكر وترديده مآخذه ـ المتوهمة آنئذٍ ـ على الصلح وردَّ أبي بكر عليه بمثل ما رد به عليه رسول الله ﷺ .

---

(١) سبل الهدى والرشاد، جـ ٥ ص ٨٦.

وأخذ أسيد بن حضير وسعد بن عبادة بيد علي ومنعهما إياه من محو عبارة (رسول الله) من كتاب الصلح ، وارتفاع الأصوات - من المسلمين الرافضين لمحوها - حتى جعل رسول الله يشير إليهم أن يسكتوا ، ثم قال لعلي : أرنيه (أي اللفظ المطلوب محوه) فمحاه ﷺ بيده الشريفة ، وقال لعلي : اكتب محمد بن عبد الله .

قال رواة السيرة : وذلك لما سبق من قول النبي ﷺ : « والله لا يسألوني خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » (!)

* * *

وإذا كان صلح الحديبية قد أبرم بوحي الله لنبيه ، كما دلت عليه عباراته ﷺ :

● « ما خلأت القصواء ، وما هذا لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة » .

● « أنا عبد الله ورسوله ولست أعصيه ، ولن يضيعني ، وهو ناصري » .

● « لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يريدون بها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

بل كما يقرر القرآن الكريم نفسه ، في قوله تعالى ، يصف ذلك الصلح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح: ١) . فإن ذلك يؤكد ما سبق أن بيناه[1] من أن هذا الصلح لا يقاس عليه ما أبرمته بعض الدول العربية ـ كانت أولها مصر ثم تلتها الأردن ـ وما قد تبرمه غيرها ، من معاهدات سلام أو هدنة أو صلح ـ سمِّها ما شئت ـ مع العدو الصهيوني. إنما يرجع في مسألة مدى مشروعية هذه المعاهدات ، أو عدم مشروعيتها ، إلى المصلحة العامة للأمة. فما حقق هذه المصلحة فإبرامه جائز أو واجب ـ بحسب الأحوال ـ وما أهدرها أو ضيع أهم عناصرها فهو غير جائز بلا خلاف بين أحد من العلماء . ونحن وإن كنا نقدر ما ظنته تلك الحكومات ضرورة ألجأتها إلى عقد معاهدات الصلح المذكورة فإننا لا نقبل التخلي عن حقيقة أن للشعوب خياراتها إزاء هذه العلاقة مع عدوها. وهو خيار مفتوح والمستقبل أمامه بغير حدود .

والقاعدة في ذلك الشأن كله ـ ماضيه وحاضره ومستقبله ـ أن تقرير المصلحة والمفسدة يكون برأي أهل الشورى (أو ممثلي الشعب أيًّا كانت تسميتهم) المنتخبين انتخابًا حرًّا مباشرًا ، لا المعينين من قبل الحكام ، ولا الذين أتى بهم إلى مقاعدهم العبث بأصوات الناخبين وتزوير نتائج الانتخابات !

---

(١) في النظام السياسي للدولة الإسلامية، السابق ذكره، ص ١٨٨.

والإجراءات التي اتخذها رسول الله ﷺ بين يدي إبرام صلح الحديبية - وهو مرده إلى الوحي - درس للحكام المسلمين - وللأمة كلها - أنه لا يجوز لحاكم أن ينفرد بالرأي، وأن يكون له القول الفصل - وحده - فيما يمس مصالح شعبه أو أمته .

وليس هناك تناقض بين النظرتين: النظرة إلى الموضوع والنظرة إلى الإجراءات .

فرسول الله ﷺ بيَّن لأصحابه ، منذ البدء ، أنه في الموضوع متبع لأمر الله تعالى ، ولن يخالف ما يوحى إليه ، وحاشاه أن يفعل . وهو في الإجراءات حفظ لأصحابه حقهم في إبداء الرأي ، وفي إظهار القوة لقريش ، وفي الرد على رسلها بما ساءهم وأثبت لهم التفاف أصحاب محمد حوله . ثم أمضى - رضيَ من رضيَ وغضب مؤقتًا من غضب - ما أمره به الله منذ خرج من المدينة المنورة يريد مكة المكرمة .

أما حكام الدنيا ، بعد النبي ﷺ ، فليس أمامهم إلا النزول على رأي أغلبية شعوبهم ، والإذعان لما تراه هذه الأغلبية محققًا لمصالحها - أي مصالح الشعوب - ومن أفتى بغير ذلك من الناس فقوله مردود عليه ، كائنًا من كان .

* * *

(١٦)

مشورة امرأة أنقذت الصحابة!

ساق رسول الله ﷺ ، من الهديْ في عمرة الحديبية سبعين بدنةً ، وساق عدد من أصحابه هدياً ، منهم عثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ﷺ . وكان الذين لا هَديْ معهم هم الأكثرون من الصحابة . فلما انتهى أمر كتابة الوثيقة بين المسلمين والمشركين ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » . فلم يقم منهم أحد ، فقالها لهم مرة ثانية ، ثم مرة ثالثة ، يقول رواة السيرة : « فوالله ما قام من أصحابه أحد » !

فشق ذلك على النبي ﷺ ، واشتد عليه ، فدخل خباءه وفيه أم سلمة ﵂ ، فعرفت الغضب في وجهه ، فسألته عن الأمر ، فقال لها : « هلك المسلمون ، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا » وفي رواية : « يوشك أن تنزل على هؤلاء حجارة من السماء... » وفي رواية ثالثة : « ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه ، وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي » ؟!

قالت أم سلمة : « يا رسول الله لا تَلُمْهُمْ ! فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، وبرجوعهم بغير فتح (أي دون أن يدخلوا مكة ويعتمروا). يا نبي الله ، اخرج ولا تكلم منهم أحداً كلمة ، حتى تنحر بُدْنَكَ وتدعو حالقك فيحلقك »[1] فجلى الله تعالى عن الناس بأم سلمة كما يقول الرواة .

خرج رسول الله ﷺ ، بعد نصيحة أم سلمة ، التي طيبت خاطره على أصحابه ، والتمست لهم العذر ، ودلته على سبيل يضمن له أن ينفذوا ما أمرهم به ؛ خرج إلى بدنه فأهوى إلى واحدة منها مكبراً « باسم الله والله أكبر » ونحرها. فتواثب المسلمون إلى الهَدْي ينحرونه حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً ، لتسارعهم إلى نحر الهَدْي بعد أن رأوا رسول الله ينحر هديه !

وكان في الهدي جمل أبي جهل الذي غنمه المسلمون يوم بدر ، وكان نجيباً (جيداً) مَهْرياً (نسبة إلى قبيلة من قضاعة أو بلدة بعُمَان كلاهما تسمَّى مَهرَة) فشرد من المسلمين وتوجه تلقاء مكة ولم يقف حتى بلغ دار أبي جهل ،

---

(١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، سبق تخريجه .

وخرج يطّلبه عمرو بن عَنَمة بن عدي الأنصاري[1] ، فأبى سفهاء مكة أن يعطوه إياه ، فتدخل سهيل بن عمرو فأمرهم برده فردوه . ودفع بعض أهل مكة فيه عدة نياق (أرادوا شراءه من المسلمين) فقال لهم رسول الله ﷺ « لولا أنا سميناه في الهدي (أي جعلناه منه) فعلنا » ونحره ﷺ عن سبعة . قال أصحاب السير :« كان النبي قد أهداه ليغيظ بذلك المشركين »!

وكانت خيام رسول الله ﷺ مضروبة في الجزء من أرض الحديبية الذي يخرج عن الحرم ، فإذا أراد الصلاة دخل الجزء الذي هو من الحرم فصلى ثم عاد إلى خيامه ، وبعث عند نحر الهدي بعشرين بدنة لتنحر في الحرم عند المروة ، ثم دخل قبة له من جلد ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الكعبي فحلق له رأسه ، ورمى شعره فوق شجرة كانت إلى جنبه ، فجعل الناس يقتسمونه كل يريد منه نصيباً ، فكان ممن أخذ منه أم عمارة الأنصارية ، فكانت - بعدُ - تضعه في الماء وتسقي منه المريض فيبرأ ! [2]

---

(١) ترجمته في ابن الأثير، أسد الغابة برقم ٣٩٢٢، وفي الإصابة لابن حجر برقم ٥٩٢٥ وفيهما أنه من البكائين الذي نزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ (التوبة:٩٢) .

(٢) الصالحي ، السابق، ص٩٣.

وجعل الصحابة يتسابقون إلى الحلق وقد أخذهم غمٌّ عظيم لما تأخروا عن تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً لشدة تعجلهم في الحلق لئلا يسبقهم رسول الله ﷺ ، ولحرصهم على المبادرة إلى تنفيذ أمره .

وحلق بعض المسلمين ، وقصَّر بعضهم ، فأخرج رسول الله رأسه من قبته وقال : « اللهم ارحم المحلقين » ، قيل يا رسول الله والمقصرين ، قال : « اللهم ارحم المحلقين » حتى قالها ثلاثاً ، ثم قال : « والمقصرين »[1].

ولولا نصيحة أم سلمة لأصاب من تباطؤوا في تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ما لا يعلمه إلا الله. ولكن مشورتها أنقذت أمة الإسلام « يومئذ » مما سماه النبي ﷺ ، « هلاكاً »، وفي ذلك من الدليل على جواز مشاورة المرأة في الأمور العامة ، مما يقطع حجة القائلين : إنها تشاور في شؤونها الخاصة فحسب . وفيه دليل على فضل أم سلمة ووفور عقلها ، وكمال نفسها ، وفهمها ما كان يجول بنفوس أصحاب النبي ﷺ ، حتى طيبت بذلك نفسه ولم توغر على أصحابه صدره !

---

(١) الصالحي، ص ٩٤ ؛ وفتح الباري، جـ٥ ص٣٤٧-٣٤٨ ؛ وفيه أن بعض الصحابة قالوا : يا رسول الله لما ظاهرت للمحلقين دون المقصرين ؟ قال لأنهم لم يشكوا .

ولا يلتفتن عاقل إلى قول من قال »لم تصب امرأة في مشورة إلا أم سلمة ، وبنت شعيب ![1] « فإن هذا من تضييق رحمة الله وفضله ، الذي يؤتيه مَنْ يشاء من الرجال والنساء ، وهو ظلم للمرأة لا يليق بأهل العلم ولا ذوي الرأي أن يقعوا فيه .

* * *

---

(١) انظر كتابنا : الإسلاميون والمرأة، دار الوفاء، ٢٠٠٠، (المرأة وممارسة العمل السياسي)، ص ٢٦ وما بعدها؛ ومحمد هيثم الخياط، المرأة المسلمة وقضايا العصر، دار سفير الدولية للنشر ،القاهرة ٢٠٠٧، ص ١٦ وما بعدها .

(١٧)

أعظم الفتح..!!

أقام رسول الله ﷺ ، بالحديبية تسعة عشر يوماً وعشرين ليلة ، وكانت مدة بقائه خارج المدينة شهراً ونصف شهر. فلما انصرف من الحديبية نَفِدَ زاد القوم ، وهم في سفرهم إلى المدينة ، فشكوا إلى النبي ﷺ ، وكان معهم إبل وخيل فقالوا: ننحرها ، ونَدَّهن بشحومها ، ونتخذ من جلودها أحذية ، ونأكل لحومها ، فأذن لهم الرسول بذلك ؛ وأُخْبِرَ عمر بما قال الناس وبإذن النبي ﷺ ، فجاء إليه مُسْرِعاً فقال : «يا رسول الله لا تفعل ، فإن يكن في الناس بقية ظهر يكن أمثل (يعني أفضل لنا أن نُبْقي على الإبل والخيل) ، كيف بنا إذا نحن لقينا العدو غداً جياعاً رجالاً (أي مشاة)؟ ! ولكن إن رأيت أن تدعو الناس فيأتوا ببقايا أزوادهم فتجمعها ثم تدعو فيها بالبركة فإن الله سيبلغنا بدعوتك». ففعل ذلك رسول الله ، فأكلوا مما كان بقي معهم من زادٍ قليل حتى شبعوا ، وفَضَل منه مثل الذي أتوا به ! فضحك رسول الله ﷺ ، حتى بدت

نواجذه ، وقال : «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، والله لا يلقى الله عبد مؤمن بهما إلا حجب من النار»[1].

ثم ارتحل القوم فما لبثوا أن أتاهم مطر غزير ، وهم في الصيف ، فَنَزلَ رسول الله ﷺ ، ونزلوا ، فشربوا من ماء السماء حتى رووا .

فتأمل هاتين الآيتين يُحدِثُهما الله ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه في رحلة العودة إتماماً للنعمة ورحمة بالناس . لا ريب في أن قلوب المؤمنين كانت أكثر القلوب اطمئنانًا إلى صدق رسول الله ﷺ . لكن بعض الناس تأسره المعجزة المادية ، بما تخرق من العادة ، وبها تثبت من صلة لا مراء فيها بين السماء والأرض . ورؤية هؤلاء للمعجزات المادية تثبت إيمانهم وتقوي يقينهم وتجعل التصديق الراسخ لرسول الله ﷺ ثمرة للمعاينة بقدر ما هو ثمرة لاستبصار العقل والخضوع لحجته .

وتأمل قبول رسول الله ﷺ، نصيحة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بعد الذي كان منه وقت إبرام الصلح مع المشركين ،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبيه، وقال عنه حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، (حديث رقم ٤٢٨٧)، من طبعة دار الفكر، بيروت ٢٠٠٢.

تَعْلَمْ صدق عمر وإخلاصه، ويقين النبي ﷺ بذلك؛ فهو لم يؤنبه، ولم يعاتبه، ولم يستغرب منه الكلام، عندما جاء ناصحاً، ولكنه - ﷺ - عقل عنه، وقبل منه وكأن شيئاً مما وقع منه عند التفاوض على الصلح لم يكن. وهذا المُوَقف النبوي مَعْلَمٌ هادٍ للمربين والآباء والأمهات والمسؤولين والحكام جميعاً: أن الخطأ ليس مؤبداً على أحد، وأن الحق يُقْبل ممن جاء به، وأن من أخلص القول والعمل - ولو خالف رأيه رأينا - فأمره كله محمول على الخير.

* * *

لما استأنف المسلمون سيرهم، نحو المدينة المنورة، قال رجل من أصحاب النبي ﷺ: « ما هذا بفتح! لقد صددنا عن البيت وصُدَّ هدينا؛ وردَّ رسول الله ﷺ، رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه »[1] (!) فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: « بئس الكلام! بل هو أعظم الفتح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح (الراح جمع راحة وهي كفّ اليد، والمعني: بغير قتال) عن بلادهم. ويسألوكم القضية

(١) أي جاءا إليه من مكة مسلمَيْن، يعني أبا جندل بن سهيل بن عمرو؛ وأبا بصير بن أسيد الثقفي، حليف بني زهرة؛ فتح الباري، جـ ٥ ص٣٤٨-٣٤٩.

(أي الصلح) ، ويرغبون إليكم في الأمان ، ولقد رأوا منكم ما كرهوا (أي من الثبات والاجتماع على النبي والطاعة له) وأظفركم الله تعالى ، وردكم سالمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح ! أنسيتُم يوم أحد ؟ ؟ ! إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ ! أَنَسِيتُم يوم الأحزاب ؟ ؟ ! إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » ؟ ! فقال المسلمون : « صدق الله ورسوله ، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأَنْتَ أعلم بالله وبأمره منا » ! ! [1]

* * *

ثم لم يمض إلا قليل حتى نزل جبريل على النبي ﷺ ، بسورة الفتح : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ (الفتح :١-٢) .

وبلغ الناس نزول الوحي على رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا إليه فقرأ عليهم أول السورة ، فقال رجل : (قيل إنه عمر بن

(١) تفسير القرطبي، جـ ١٦ ص ٢٦٠؛ والصالحي، السابق، ص ٩٦ وهو ينسبه إلى البيهقي من رواية عروة.

الخطاب) «أوَ فتحٌ هو يا رسول الله؟» قال: «إي والذي نفسي بيده إنه فتح»[1]! وقال رجال من المسلمين: «يا رسول الله هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله، قد بيَّن الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعلُ بنا[2]؟» فنزل عليه قول الله تعالى ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾
(الفتح: ٥)

وكان جبريل قد هنأ رسول الله ﷺ، بالبشارة الربانية في مطلع سورة الفتح، ولذلك هنأه المسلمون بها؛ وكان النبي ﷺ، يقول: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»[3] أو «هي أحب إليَّ مما على الأرض»[4].

* * *

(١) رواه أحمد في المسند عن مُجَمِّع بن جارية الأنصاري، رقم ١٥٥٤٩؛ وذكره الصالحي، السابق، ص ٩٧، ورواية أن القائل هو عمر بن الخطاب في: النويري، نهاية الأرب، ط دار الكتب المصرية جـ ١٧ ص ٢٣٥.

(٢) القرطبي، جـ ١٦ ص ٢٦٢؛ والحديث في سنن الترمذي عن أنس برقم ٣٢٦٣ وقال فيه الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه، رقم ٤١٧٧ و٥٠١٢.

(٤) رواه الترمذي عن أنس بن مالك، رقم ٣٢٦٣.

كانت الحديبية ـ والصلح الذي تم فيها ـ مبدأ الفتح للإسلام والمسلمين . فقد ترتب على هذا الصلح أن أمن الناس ـ المسلمون والمشركون جميعاً ـ وتمكن مِن أراد الدخول في الإسلام ـ وكان يخشى سطوة قومه ـ أن يُظهر دينه، وأن يهاجر إلى المدينة ، بل فعل ذلك بعض رؤوس قريش نفسها كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما . ثم توالت الأسباب حتى فتحت مكة نفسها ودانت للإسلام أرض العرب كلها ؛ فكان ظاهر الصلح أن المسلمين ظُلِموا وهزموا ، وكان باطنه أنهم انتصروا وعزّوا ! !

* * *

(١٨)
حديث الوحي

يقول الله تعالى في سورة البقرة :

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (البقرة:١٩٦) .

يقول الإمام الطبري : « وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أن هذه الآية نزلت عليه بسبب كعب بن عجرة ، إذ شكا كثرة أذًى برأسه من صئبانه ، وذلك عام الحديبية »[١] .

---

(١) أبو جعفر بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط شاكر، جـ٤ ص ٥٨.

وقد ساق الطبري حديث كعب بن عجرة من سبعة وعشرين طريقًا - بعضها في الصحيحين والمسند وكتب السنن - في أثناء تفسيره لهذه الآية ، وبوجه خاص لقوله تعالى فيها: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة:١٩٦) .

وقد فسر العلماء أذى الرأس بالقمل وغيره - كالذي أصاب كعب بن عجرة - وبالصداع ونحوه ، وفسروا المرض بكل ما يحتاج المريض لعلاجه منه إلى حلق الرأس ، أو التداوي بدواء فيه الطيب ، وبالقروح والعلل العارضة للأبدان [١] .

فهذه هي الآية الأولى التي أنزلت على رسول الله ﷺ بالحديبية. ومع ما ذكرناه من دلالة هذه الآية على يسر الإسلام ومنهج تشريعه في التخفيف عن الناس[٢] ؛ فإن فيها دلالة لا يخطئها الفقيه على مكانة السنة في التشريع. ذلك أن القرآن الكريم نزل يقرر الفدية ، ويحدد خصالها وأنه صيام

---

(١) السابق، ص ٥٤ و٥٨.

(٢) راجع ما سبق في فصل (التيسير على الناس).

أو صدقة أو نسك . ولم يقل النص القرآني كم يكون الصيام؟ فبيَّن النبي لكعب أن الصيام ثلاثة أيام ، فكانت السنة بيانًا للقرآن لا يستغني المسلم عنه وإلا لم يعرف ما الصيام المطلوب منه .

ثم لم يذكر النص القرآني في الصدقة ماهي ؟ فبين النبي ﷺ لكعب بن عجرة أنها ثلاثة آصع من تمر ، تقسم بين ستة مساكين : فيكون لكل مسكين نصف صاع[1] وبغير هذا البيان النبوي لم تكن الصدقة لتعرف ، ولم يكن إخراجها في الفداء ممكنًا إلا باختلاف كبير لا يتضح به صحيح الحكم القرآني.

---

(١) الصاع مكيال لأهل المدينة لهم في تقديره اختلاف كثير، انظر مادة «صوع» في النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ط دار المعرفة، بيروت ٢٠٠١ بتحقيق خليل مأمون شيحا، ج٢، رقم ٢١٩٦؛ وابن قتيبة، غريب الحديث، ط بغداد ١٩٧٧ بتحقيق الدكتور عبد الله الجبوري، جـ١ ص١٦٢. وفي بعض روايات حديث كعب بن عجرة أن النبي ﷺ أمره بإطعام فَرَق بين ستة مساكين، وفي بعضها أنه أمره بإطعام ستة مساكين مُدَّين مُدَّين لكلّ مسكين. والفرق مكيال لأهل المدينة مختلف في سعته، أيضًا، كالصاع. والمُدُّ رطل وثُلثٌ عند أهل الحجاز (غريب الحديث ص ١٦٣) أو رطلان عند أهل العراق (النهاية: مادة «مدد» جـ٢ رقم ٣٥٠٨). والروايات التي فيها ذكر (الفَرَق) عند الطبري، السابق، ص ٦٠ و٦٣ و٦٤. والروايات التي فيها ذكر (المدّين) في ص ٦٥ و٦٨.

وفي النص القرآني الأمر بالنُسُك ، خصلةً ثالثة من خصال الفداء . والنُسُك جمع نسيكة ، وهي الذبيحة[1] مطلقًا من شاة فما فوقها. لكن رسول الله ﷺ قال لكعب بن عجرة: « إن شئت فانسك نسيكة » ، وفي روايات صحيحة للحديث : « اذبح شاة »[2] ففسرت السنة لفظ « النسك » القرآني بالشاة لا بغيرها من الذبائح. وهو تفسير لم يكن لأحد ، لولا السنة ، القول به .

ولذلك قال الإمام الطبري ، بعد ذكر أقوال بعض العلماء في مسألة الفدية : « والصواب من القول في ذلك عندنا ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ ، وتظاهرت به الرواية : أنه أمر كعب بن عجرة بحلق رأسه من الأذى الذي كان برأسه، ويفتدي إن شاء بنسك شاة ، أو صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام فَرَق من طعام بين ستة مساكين كل مسكين نصف صاع. وللمفتدي الخيار بين أي ذلك شاء لأن الله لم يحصره في

(١) النهاية في غريب الحديث، مادة « نسك »، جـ٢ رقم ٣٧٩١؛ واللسان، مادة: « نسك » ؛ والأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن، بتحقيق صفوان داوودي ، دار القلم ، دمشق ط٣ ٢٠٠٢ مادة « نسك ».

(٢) قال ابن حزم: « وهذا أكمل الأحاديث وأبينها »، المحلى، جـ ٧ المسألة رقم ٨٧٤ ص ٢٠٨.

واحدة منهن بعينها ، فلا يجوز له أن يعدوها إلى غيرها ، بل جعل إليه فعل أي الثلاث شاء»[1].

فكيف يجوز لأحد ، مؤمن بالإسلام والقرآن ونبوة محمد ﷺ ، أن ينكر الدور الذي تقوم به السنة في التشريع ؟ ؟

* * *

ويقول القرآن الكريم في سورة النساء :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(النساء:١٠٢)

---

(١) الطبري، السابق ، ص٧٦.

كان نزول هذه الآية بعد أن صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة الظهر بالحديبية [1].

وصلاة الخوف التي ذكرها القرآن الكريم أداها الرسول ﷺ أربعًا وعشرين مرة ، على ستة أوجه أو سبعة أوجه ، رويت كلها من طرق صحيحة ثابتة ، كما قال الإمام أحمد بن حنبل ، وغيره [2].

---

(١) في كثير من الروايات، في البخاري والطبري وغيرهما، أن ذلك كان بعُسْفان، وهو صحيح، ولا ينافي أن نزول الآية كان بالحديبية، فإن عُسْفان على الطريق من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وهي أقرب إلى مكة منها إلى المدينة، بينها وبين مكة مرحلتان، أو ستة وثلاثون ميلاً. (ياقوت، معجم البلدان، جـ٤ رقم ٨٣٩٥ من ط دار الكتب العلمية، بيروت د.ت).

وقد يبدو أن في نزول حكم صلاة الخوف في الحديبية إشكالاً يثيره ما رواه البخاري والطبري، وغيرهما من أن النبي ﷺ صلى بالمسلمين صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع، المختلف في وقتها بين السنة الرابعة والسنة الخامسة للهجرة، والحديبية كانت في السنة السادسة بغير خلاف.

ولكن هذا الإشكال يزول بما حققه الحافظ ابن حجر، في فتح الباري من أن ذات الرقاع كانت بعد الحديبية وبعد خيبر. وقد استدل لذلك بأدلة من أهمها ما نقله عن الواقدي من حديث خالد بن الوليد أنه قال: «لما خرج النبي ﷺ إلى الحديبية لقيته بعسفان فوقفت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر، فهممنا أن نُغير عليهم فلم يُعْزَم لنا، فأطْلَعَ الله نبيه على ذلك فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف.» وبين الحافظ ابن حجر أن قصة نزول جبريل بآية صلاة الخوف قصة واحدة هي التي كانت في الحديبية، وأن روايات صلاة الخوف الأخرى كانت بعد ذلك. راجع فتح الباري، جـ٧ ص ٤٢٢-٤٢٤.

(٢) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط دار الكتب المصرية، جـ٥ ص ٣٦٥؛ وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ط المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م، جـ٢ ص ١٨٦؛ والمغني لابن قدامة، ط دار هجر بالقاهرة، بتحقيق عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، جـ٣ ص ٣١١.

فالسُّنةُ هنا مبينة للقرآن ، كما بينت تفصيل ما جاء به من حكم الفدية للحالق رأسه وهو محرم . وهذا دليل ثان على أنه يستحيل الاستغناء بالقرآن وحده في معرفة أحكامٍ الشرع ؛ بل لابد من الوقوف على ما وردت به السنة التي هي بيانه ، بأمر الله لنبيه ﷺ : ﴿ .... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٤٤) .

وقد نص الإمام الطبري على بيان السنة لصلاة الخوف على وجوه متعددة ، فقال : «غير أن الأمر وإن كان كذلك [أي من تعدد كيفيات أداء صلاة الخوف في فعل النبي ﷺ] فإنا نرى أن من صلاها من الأئمة فوافقت صلاته بعض الوجوه التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ أنه صلاها ، فصلاته مجزئة عنه تامة ، لصحة الأخبار بكل ذلك عن رسول الله ﷺ ، وأنه من الأمور التي علَّم رسول الله ﷺ أمته ، ثم أباح لهم العمل بأي ذلك شاؤوا»[1].

* * *

ثم نزلت سورة الفتح ، على رسول الله ﷺ ، في طريق عودته من الحديبية إلى المدينة المنورة.

---

(١) تفسير الطبري، السابق، ص ١٦١.

وهذه السورة كلها في شأن الحديبية ، وما سبقها وما جاء بعدها ، لا يخالف في هذا أحد من أهل العلم بالتفسير بأسباب النزول.[1]

وهي مدنية لأن القرآن المدني في المشهور من مصطلح أهل العلم بالقرآن هو ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة المنورة[2].

وقد أوجز الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أغراض هذه السورة فيما يأتي :

١- بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية ، وأنه نصر وفتح ، فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين وأزال حزنهم من صدهم عن الاعتمار بالبيت .

٢- إخبار المسلمين بأن العاقبة لهم وأن دائرة السوء على المشركين والمنافقين .

٣- التنويه بكرامة النبي ﷺ عند ربه ، ووعده بنصر بعد نصر.

---

(١) أبو جعفر النحاس، معاني القرآن الكريم، ط جامعة أم القرى بمكة المكرمة، بتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، ١٩٨٩ جـ٦ ص ٤٩١؛ القرطبي، المرجع السابق، جـ١٦ ص ٢٥٩.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، في مطلع تفسيره لسورة الفتح؛ والقرطبي، السابق، جـ١٦ ص ٢٥٩.

٤ – الثناء على المؤمنين الذين عزروه وبايعوه ، وأن الله ضرب لهم مثلاً في التوراة والإنجيل.

٥– ذكر بيعة الحديبية [بيعة الرضوان] والتنويه بشأن من حضرها.

٦– فضح الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب ووصفهم بالجبن ، والطمع ، وسوء الظن بالله ، والكذب على رسول الله ﷺ .

٧– منع أولئك المتخلفين عن رسول الله ﷺ من المشاركة في غزوة خيبر ، التي كانت بعد الحديبية مباشرة .

٨– إخبار من تخلفوا عن رسول الله ﷺ أنهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غفر الله لهم تخلفهم عن الحديبية.

٩– وعد النبي ﷺ بفتح آخر ، بعد الفتح المذكور في السورة ، وبفتح مكة.(١)

ولا يحيط بشأن الحديبية ، وما كان فيها من نعم الله ، العامة والخاصة ، على رسول الله ﷺ ومن كان معه من المسلمين إلا من أحاط بسورة الفتح وتفسيرها ، وأدرك معانيها ، كما شرحها أهل التفسير ، وكما رواها المحدثون.

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق .

وهذا البحث يخرج عن غرض هذا الكتاب. لذلك اكتفيت بإشارة موجزة لبعض المعاني التي تضمنتها السورة الكريمة[1] محيلاً من أراد الاستزادة - بل ناصحًا كل قارئ بذلك - إلى

---

(١) اقتصرت على كتب: تفسير الطبري، ورجعت في شأن سورة الفتح إلى طبعة المطبعة الأميرية ببولاق (١٣٢٩هـ) لأن طبعة الشيخ أحمد وأخيه الأستاذ محمود شاكر لم تصل إليها. وتفسير السورة في طبعة المطبعة الأميرية يقع في الجزء السادس والعشرين من صفحة ٤٢ إلى صفحة ٧٣؛ وتفسير القرطبي، وسورة الفتح في جزئه السادس عشر من صفحة ٢٥٩ إلى صفحة ٢٩٩؛ وتفسير أبو جعفر النحاس، وسورة الفتح فيه في الجزء السادس من صفحة ٤٩١ إلى نهاية الجزء، وهو آخر ما عثر عليه من كتابه؛ وتفسير الشيخ محمد الأمين الشنقيطي المسمى: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، طبعة الراجحي، الصادرة عن دار عالم الفوائد بمكة المكرمة بإشراف الشيخ بكر عبد الله أبو زيد، وسورة الفتح في المجلد السابع منه، من صفحة ٦٣٩ إلى صفحة ٦٤٦؛ وتفسير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، والطبعة التي تحت يدي وأنا أكتب هذا الفصل طبعة إلكترونية، على الشبكة الدولية للمعلومات والاتصالات، على موقع باسم: «تفسير» صفحاتها مرقمة ترقيمًا متواليًا، وسورة الفتح فيها تبدأ من صفحة ٤٠٤٥ وتنتهي في صفحة ٤٠٨٦؛ وتفسير سيد قطب، رحمه الله، في ظلال القرآن، ط دار المعرفة في بيروت ١٩٧١ (وهي مصورة عن طبعة دار التراث العربي) وتفسير سورة الفتح فيه يقع في الجزء السادس والعشرين من صفحة ٤٧٥ إلى صفحة ٥١٦. فالإشارة إلى أي من هذه التفاسير إشارة إلى موضع سورة الفتح منه. وقد أشير، أحيانًا، إلى تفسير ابن الجوزي المسمّى زاد المسير في علم التفسير، طبعة المكتب الإسلامي في مجلد واحد، وسورة الفتح فيه من صفحة ١٣١٦ إلى صفحة ١٣٢٧؛ أو إلى تفسير ابن كثير، ط دار الشعب المحققة، وسورة الفتح في الجزء السابع صفحة ٣٠٧ إلى صفحة ٣٤٤.

كتب التفسير المعتمدة ، وكتب الحديث الصحيح ليقف على التفصيل الكامل لمعاني هذه السورة القرآنية الجامعة لأمر الحديبية ، المبينة كيف علّم القرآن الكريم أصحاب محمد ﷺ دروسًا خالدة بانية للأفراد والأمم على السواء ، وأثرها باقٍ على مر الزمان لا يبلى ولا يفسد ، بل يفيد منه كل من يتدبر آيات سورة الفتح ويعمل فيها نظره ويدركها بعين البصيرة الواعية .

أول ما ينبغي الوقوف عنده في هذه السورة هو مطلعها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾(الفتح:١) وهذا الفتح عند الجمهور هو صلح الحديبية ، لأنه فتح عظيم .[١]

وقد روى الطبري بسنده عن الشعبي أنه قال : « نزلت إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا بالحديبية ، وأصاب في تلك الغزوة ما لم يصبه في غزوةٍ ؛ أصاب أن بويع بيعة الرضوان ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وظهرت الروم على الفرس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وأطعموا نخل خيبر فقد قسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد »[٢].

---

(١) الشنقيطي، ص ٦٠٣؛ وزاد المسير، ص ١٣١٦؛ وابن كثير، ص ٣٠٧؛ وسيد قطب، ص ٤٩١.

(٢) الطبري، ص ٤٥؛ والقرطبي، ص ٢٦٠.

وأشارت السورة الكريمة إلى الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ ممن ذكرنا قولهم عن الرسول وأصحابه ، وهم في طريقهم إلى الحديبية : «لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبدًا»[1]. وقالوا لرسول الله ﷺ إن لديهم ما يشغلهم عن الخروج معه إلى العمرة . فقالت سورة الفتح بعد أن بشرت المؤمنين بالجنة ، وبتكفير سيئاتهم ، وبأن هذا عند الله فوز عظيم ، قالت عن المنافقين : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (الفتح:٦) .

قال أهل التفسير إن عذاب المنافقين المذكور في هذه الآية هو ما يصيبهم من الحزن ، وخيبة الأمل ، وفقد الرجاء فيما كانوا يحسبونه واقعًا لرسول الله ﷺ وأصحابه لما رأوهم عليه من الضعف والوهن ، ولما ظنوه من تولي أصحاب النبي ﷺ عنه إذا احتاج إلى نصرتهم وقتالهم معه . وقرنت الآية بين المشركين والمنافقين لاشتراكهم في ظن السوء بالله تبارك وتعالى ، وتمني الهلاك لمحمد وأصحابه .[2]

---

(١) انظر فصل (شوق ورؤيا صادقة) .

(٢) الطبري، ص ٤٦ ؛ والقرطبي ، ص ٢٦٥ ؛ وابن كثير، ص ٣١١.

وقال الشيخ الشنقيطي إن الله بيَّن في هذه الآية الكريمة أنه يجازي المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات بثلاث عقوبات : هي غضبه ، ولعنته ، ونار جهنم . وقد بيَّن القرآن في آيات أخرى نتائج هذه العقوبات: فقال في الغضب: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ (طه:٨١) ، وقال في اللعنة : ﴿ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ (النساء:٥٢) وقال في نار جهنم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ (آل عمران:١٩٢)[١].

وعقَّب القرآن الكريم على هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:٧) وكان ذلك ردًّا على رأس المنافقين عبد الله بن أبي - الذي لم يكفه ما كان منه عند نزول المطر ، وعند جيشان البئر بالماء -[٢] فأضاف آية جديدة لنفاقه ، عندما جرى الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، إذ قال : «أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو؟ فأين فارس والروم!» فرد عليه القرآن بقول تعالى ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفتح:٧) . وهذه الجملة تكررت في الآية الرابعة

---

(١) الشنقيطي ، ص ٦٤٢.
(٢) راجع فصلي : (كبر كاذب) و(المؤمنون بالكواكب).

من السورة نفسها تعقيبًا على كلام المشركين من قريش خاصةً ، وجاءت هنا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمراد في الموضعين التخويف والتهديد. فإن الله تبارك وتعالى لو أراد إهلاك المشركين والمنافقين لم يعجزه ذلك ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .[1]

ثم بينت السورة فضل الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ١٠) .

وهذه البيعة هي التي ذكرنا من قبل أنها كانت على عدم الفرار ، أو على الموت ، وجعل الله تبارك وتعالى البيعة له ـ سبحانه ـ تشريفًا لنبيه ﷺ [2] ؛ وإشارة إلى أن قوة الله تبارك وتعالى فوق قوة المبايعين ، وقدرته على نصرة نبيه على عدوه فوق قدرتهم ، وأن من يرجع في هذه البيعة فإنما يصيب بالضرر نفسَه لأنه يحرمها من الأجرِ العظيم الذي وعد الله به الموفين ببيعته ، وقد فُسِّرَ هذا الأجرُ بأنه الجنة .[3]

---

(١) القرطبي، ص ٢٦٥-٢٦٦، وفيه الكلام المنسوب إلى عبد الله بن أبي.

(٢) ابن كثير، ص ٣١٢.

(٣) الطبري، ص ٤٧ ؛ والقرطبي، ص ٢٦٧.

ويفضح القرآن الكريم حقيقة ما في نفوس المخلَّفين من الأعراب بقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (الفتح:١١-١٢). ويحذرهم عاقبة الاستمرار في ظنهم السيء بالله ورسوله وأنه قد يؤدي بهم إلى الكفر فيقول تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ (الفتح:١٣). ثم يحثهم على التوبة مما فعلوا بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفتح:١٤)[1].

وبعض الذين تخلفوا عن رسول الله، في الحديبية وفي غيرها من المشاهد، كان تخلفهم لأعذار تحول بينهم وبين الخروج؛ فنفى الله تبارك وتعالى الحرج عنهم، ليخرجهم من زمرة العاصين لرسول الله ﷺ، ويؤكد أنهم على أصل

---

(١) القرطبي، ص٤٩؛ وابن كثير، ص ٣١٩؛ وسيد قطب، ص ٥٠١.

الطاعة وإن حالت أسباب قاهرة بينهم وبين الخروج مع رسول الله ﷺ . قال تعالى ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:١٧) .[1]

ولا ريب أن في هذا العذر تطييبًا لقلوب المذكورين في الآية . وهذه الآية من سورة الفتح نظيرها قول الله تعالى في سورة التوبة ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [2] (التوبة:٩١-٩٢).

ثم تأتي المجموعة الأخيرة من آيات سورة الفتح متضمنة أن الله رضي عن المبايعين تحت الشجرة ، وأنه يعدهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة ، وأنه هو الذي كفَّ أيدي

---

(١) الطبري، ص ٥٣؛ والقرطبي ، ص٢٧٣.

(٢) القرطبي، جـ ٨ ص ٢٢٥؛ وآيات سورة التوبة من الآية (٨٥) إلى الآية (١٠٢) تورد أحكام الخروج مع رسول الله والتخلف عنه بتفصيل فراجع تفسيرها في القرطبي جـ ٨ ص ٢٢٣-٢٤٤.

الناس عنهم ، أي المشركين بمكة ، وأنهم لو قاتلوهم - على الرغم من أن المسلمين لم يكن معهم سلاح قتال - لولى المشركون الأدبار ولم يجدوا وليًا ولا نصيرًا .

قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (الفتح:١٨-٢٢) .

يقول الأستاذ سيد قطب : « أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر. وقد يكون هذا. ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصًا في خيبر ...... ولعل الذي جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية.. إذ كانت في المحرم من سنة سبع. بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية. وأنها كانت وافرة الغنائم . وكانت حصون خيبر آخر ما بقى لليهود في الجزيرة من مراكز قوية

غنية. وكان قد لجأ إليها بعض بنى النضير وبني قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من قبل .

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد. ولم أجد في هذا نصًا . ولعلهم يأخذون هذا مما وقع فعلاً. فقد جعلها رسول الله ﷺ في أصحاب الحديبية ، ولم يأخذ معه أحد غيرهم...... والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية ، وطريقة علاج النفوس والقلوب ، بالتوجيهات القرآنية ، والابتلاءات الواقعية . وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين ، وفي توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيماني القويم»[1].

وتشير الآيات بعد ذلك إلى ما كان من انتصار المسلمين على من حاول النيل منهم من المشركين ، في الحديبية ، بأسرهم مجموعة بعد مجموعة منهم ، وإطلاق رسول الله ﷺ إياهم ؛[2] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الفتح: ٢٤) .

---

(١) سيد قطب ، ص ٥٠١ و٥٠٢.

(٢) القرطبي، ص ٢٨٠؛ والطبري، ص ٥٨ ؛ وانظر فصل (غدر ونصر وعفو)

وتبيِّنُ للمؤمنين أن الله تبارك وتعالى منعهم من دخول مكة بسبب من فيها من المؤمنين والمؤمنات الذين لم يكونوا معروفين لا بأعيانهم ولا بأماكنهم ، فلم يكن بعيدًا أن يقتل المسلمون منهم ، أو يصيبوا من أموالهم ، فيكون ذلك عارًا على أصحاب النبي ﷺ [1]. وهذا المنع من القتال كان رحمة من الله تبارك وتعالى بأصحاب محمد وبالمؤمنين الذين كانوا متفرقين في أهل مكة . ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:٢٥) . فأما أصحاب محمد فلئلا يصيبهم العيب بأن يقول المشركون قتلوا أهل دينهم ، وأما المؤمنون المستضعفون في مكة فلئلا يصيبهم الأذى من القتل وغيره بغير ذنب. ومن جميل كلام المفسرين في هذا الموضع أن هذه الآية (الآية ٢٥ من سورة الفتح) دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمنين عندما لا يكون الوصول إلى الكافر ممكنًا

---

(١) الطبري، ص ٦٥ ؛ والقرطبي ، ص٢٨٥.

إلا بأذى يصيب المؤمن. وذلك قول الله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:٢٥) ومعنى تزيلوا: تميزوا ، أو تفرقوا ، فأصبح موضع كل من المؤمنين والكافرين معروفًا ظاهرًا ، لو حدث هذا لأباح الله لنبيه قتال المشركين. قال أهل التفسير : « ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار »[1].

---

(١) القرطبي ، ص ٢٦٨؛ وما بين القوسين نقله القرطبي عن الضحاك. وتجب ملاحظة قول القرطبي — وهو قول المالكية — في جواز قتل من يتخذهم الكفار من المسلمين حائلاً بينهم وبين جيش المسلمين، وهو ما يسميه الفقهاء (الترس). قال القرطبي: « قلت: قد يجوز قتل التُّرس، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كليَّة قطعية. فمعنى كونها ضرورية : أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ومعنى أنها كلية: أنها قاطعة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة لكل المسلمين؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة . ومعنى كونها قطعية: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعًا . قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود « لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعًا؛ فإما بأيدي العدوّ فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدوّ على كل المسلمين. وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه؛ لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم. والله أعلم» (ص ٢٨٧-٢٨٨) .

وتقابل الآيات بين صنيع الكافرين الذين حركتهم حمية الجاهلية فأبوا الإقرار لرسول الله بالرسالة ، واستفتاح كتاب الصلح باسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعوا النبي ﷺ ومن معه من دخول مكة؛ تقابل بين هذا السلوك الجاهلي وبين فضل الله على المؤمنين إذ أنزل سكينته على رسوله وعليهم؛ فكان من أثر هذه السكينة صبر المؤمنين وطمأنينتهم ووقارهم ، وبقاؤهم على كلمة التقوى وهي كلمة التوحيد التي أبى المشركون من أهل مكة أن يجيبوا إليها[1]. والسكينة تشمل الطمأنينة ، والسكون إلى الحق ، والثبات ، والشجاعة عند البأس.[2] ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح:٢٦) .

---

(١) الطبري، ص ٦٥ ؛ والقرطبي ، ص ٢٨٨ .

(٢) الشنقيطي، ص ٦٤٤ ؛ وقد ذكر معنى جميلا عندما أشار إلى ذكر القرآن الكريم السكينة وإنزالها على الرسول وعلى المؤمنين في سورة التوبة دون أن يبين موضع إنزالها، وأن الآية الرابعة في سورة الفتح حددت موضع إنزال السكينة، وهو القلب، في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:٤) .

ثم تؤكد الآيات الخاتمة لسورة الفتح صدق وعد الله لرسوله بدخول المسجد الحرام ، وأن هذا الدخول يسبقه فتح قريب : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح:٢٧) .

ثم تثني على النبي ﷺ ، وتعد بظهور دينه على الدين كله ، وتذكر مَثَلَ المؤمنين في التوراة والإنجيل :﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا * مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح:٢٨-٢٩) .

فأما التوراة ففيها مثل المؤمنين يوم القيامة وما يبدو في وجوههم من أثر صلاحهم في الدنيا ، وهو نظير قوله تعالى ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (المطففين:٢٤) وقوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢)(١). وروي عن ابن عباس ومجاهد أن ما أشارت إليه الآية الكريمة من مثل المؤمنين في التوراة هو السمت الحسن ، وهو الخشوع والتواضع ، ورُوِيَ عن ابن جريج أنه الوقار والبهاء(٢) ؛ وهذه كلها أقوال متقاربة .

وأما الإنجيل فقد ضرب القرآن فيه مثل « النبي وأصحابه بأنهم كالزرع يظهر في أول نباته رقيقًا ضعيفًا متفرقًا ، ثم ينبت بعضه حول بعض ، ويغلظ ويتكامل ، حتى يقوى ويشتد وتعجب جودته أصحاب الزراعة العارفين بها »(٣). هذا المثل موضَّحٌ في مواضع أخرى من كتاب الله تعالى كقوله:﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم

---

(١) الطبري، ص٧٠ ؛ والقرطبي ، ص ٢٩٢.

(٢) القرطبي ، ص ٢٩٣ ؛ والطبري ، ص ٧٠-٧١.

(٣) الشنقيطي ، ص ٦٤٥.

بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الأنفال:٢٦) وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٣) .

وهذه الآية ـ أعني آية سورة الفتح ـ دليل على وجوب حب أصحاب رسول الله ﷺ وعدم جواز انتقاصهم. نقل القرطبي عن أبي عروة الزبيري ، من ولد الزبير بن العوام ، أنه قال : « كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ (الفتح:٢٩) حتى بلغ ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ (الفتح:٢٩) فقال مالك من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية ».

وعلق القرطبي على ذلك بقوله: « لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله فمن نقص واحدًا منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين .... قال الله تعالى ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب:٢٣) . وقال ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا

﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٨-٩). وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم. وقال رسول الله ﷺ «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم»[١]. وقال: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[٢] .... والأحاديث بهذا المعنى كثيرةٌ فحذارِ من الوقوع في أحدٍ منهم ...... وقد لعن رسول الله ﷺ من سب أصحابه ؛ فالمكذب لأصغرهم – ولا صغير فيهم - داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله ﷺ وألزمها كل من سب واحدًا من الصحابة أو طعن عليه..... فالصحابة كلهم

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر ، البخاري رقم ٢٦٥٢ ؛ وفي مسلم برقم ٢٥٣٣.

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري ، برقم ٣٦٧٣ ؛ أي إن صدقة الواحد من الصحابة بالقدر القليل المذكور في الحديث يزيد ثوابها وأجرها عن صدقة من بعدهم بمقدار جبل أحد من الذهب .

عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهب أهل السنة ، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة »[1] .

اللهم ارزقنا حبك وحب نبيك

وحب أصحاب نبيك واجعلنا

ممن يلقاه يوم القيامة على ذلك ،

والحمد لله رب العالمين .

* * *

---

(١) القرطبي باختصار ، ص ٢٩٦-٢٩٩ .

